

عبد الحميد كشك

في

كتاب التفسير

الجزء السادس

المكتبة المصرية الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

الجهر بالسوء

* لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

المفردات : ﴿الجهر﴾ : الإعلان يقال جهر برأيه أعلنه ، ﴿السوء﴾ : كل ما يسوؤك فعله أو قوله ، ﴿إلا من ظلم﴾ : أى وقع عليه ظلم . ﴿سميعاً﴾ : أى للأقوال . ﴿عليماً﴾ : أى بالأفعال والنيات . ﴿إن تبدوا﴾ : أى تظهروا ﴿عفواً﴾ : يتجاوز عن السيئات .

التفسير

اشتملت هذه الآية الكريمة على خلق إسلامي ، عسى أن يستمسك به المسلمون في عصر كثر فيه القيل والقال ، والجهر بالسوء في كل مجال ومكان وقد ورد في هذه الآية أقوال للأئمة المفسرين

عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول : لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً ، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه ، وذلك قوله «إلا من ظلم» وإن صبر فهو خير له .

وقال الحسن البصري : لا يدعو عليه ، وليقل اللهم أعني عليه وأستخرج حقي منه^(١) ، وفي رواية عنه قال : قد أرخص له أن يدعوا على من ظلمه من غير أن يعتدى عليه ، وقال عبد الكريم بن مالك الجزري : في هذه الآية هو الرجل يشتبك فتشتمه ، ولكن إن افتري عليك فلا تفتري عليه لقوله تعالى : ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾^(٢) .

(١) وتنمة الدعاء : «اللهم خل بينه وبين ما يريد ما يريد من ظلمي» القرطبي ج ٦ ص ١ «

(٢) الآية رقم ٤١ من سورة الشورى

(٣) الآية رقم ٢٩ من سورة فاطر

(٤) الآية رقم ٣١ من سورة إبراهيم

وعن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : إن لي جاراً يؤذيني فقال له : « أخرج متاعك فضعه على الطريق » فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق فكل من مر به قال : مالك ؟ قال جاري يؤذيني فيقول اللهم عنه اللهم أخزه قال : فقال الرجل : أرجع إلى منزلك والله لا أؤذيكَ أبداً

قوله تعالى ﴿ إِن تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا ﴾

بعد ما بين سبحانه أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول ، إلا من كانت له مظلمة ، فله الحق أن يجهر بها طلباً للإنصاف والعدل ، وضرب الرسول ﷺ أمثالاً في سنته الشريفة ، بعد ذلك رغب الله في الخير وفعله ، سواء أكان على سبيل العلن أو السر ، ما دامت النيات خالصة لله ، قال تعالى : ﴿ إِن الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (٢) وقال جلّت قدرته ﴿ إِن تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ وَإِن تَخَفُوهَا وَتَوْتَرُهَا الْفُقَرَاءُ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٣) وقال عظمت حكمته ﴿ الَّذِينَ يَنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٤) وهنا في هذه الآية ﴿ إِن تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا ﴾ وإذا كان فعل الخير سرّاً أو علانية عملاً جليلاً ؛ فإن العفو عن السوء خصلة من خصال الكرم إذ العفو عند المقدرة صفة من أجل الصفات

ورد في الأثر أن حملة العرش يسبحون الله فيقول بعضهم سبحانه على حلمك بعد علمك ، ويقول بعضهم سبحانه على عفوك بعد قدرتك . وفي الحديث الصحيح « ما نقص مال من صدقة ولا زاد الله عبداً يعفو إلا عزاً ومن تواضع لله رفعه » .

عاقبة الكفر والإيمان

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

المفردات : ﴿ سبيلًا ﴾ : طريقاً . ﴿ أعتدنا ﴾ : هيأنا وأعدنا .

(٣) الآية رقم ٢٧/ من سورة البقرة

(٤) الآية رقم ٢٦/ من سورة البقرة

(١) الآية رقم ٢٩/ من سورة فاطر

(٢) الآية رقم ٣١/ من سورة ابراهيم

بين الله سبحانه هذه الآيات أن للإيمان ركنين يبنى عليهما ماعداهما ، ولا يقبل الإيمان بدونهما ، وهما الإيمان به وبجميع رسله بدون تفرقة بين رسول وآخر ، ومن أنكرهما^(١) أو أحدهما فقد كفر ، وعاقبته العذاب الأليم في جهنم وبئس القرار .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ﴾

إن الكافرين بالرسول فريقان : فريق لا يؤمن بأحد منهم لإنكارهم النبوات ، وزعمهم أن ما أتى به الأنبياء من الهدى والشرائع هو من عند أنفسهم لا من عند الله ، وأكثر الملحدين في هذا العصر من ذلك الفريق .

وفريق آخر يؤمن ببعض الرسل دون بعض ، كقول اليهود نؤمن بموسى ونكفر بيسى ومحمد ، فهما ليسا برسولين ، وقول النصارى نؤمن بموسى وعيسى ونكفر بمحمد ، والفريقان كافرون مستحقون للعذاب ولا عبرة بما يدعونه إيمانا .

﴿ وأعدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾ . أى وأعدنا لكل كافر سواء أكان منهم أم من غيرهم عذابا فيه ذل وإهانة لهم جزاء كفرهم الذى ظنوا فيه العزة والكرامة .

ذاك أن من يؤمن بالله ولا يؤمن بوحىه إلى رسله لا يكون إيمانه صحيحاً ، ولا يتهدى إلى ما يجب لله من الشكر ، ولا يعرف كيف يعبد على الوجه الذى يرضيه ، ومن ثم نرى أمثال هؤلاء ماديين لا تهمهم إلا شهواتهم .

كما أن من يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض . كأهل الكتاب - لا يعتد بقولهم ، لأن الإيمان بالرسالة على الوجه الحق : إنما يكون بفهمها وفهم صفات الرسل ووظائفهم وتأثير هدايتهم ، ومن فهم هذا حق الفهم علم أن صفات الرسل قد ظهرت بأكملها فى محمد ﷺ ، فهو قد جاء بكتاب حوى مالم يحويه كتاب آخر ، مع إنه نشأ بين قوم أميين ، ونُقِل كتابه وأصول دينه بالتواتر القطعى والأسانيد المتصلة دون غيره من الكتب .

وبعد أن ذكر حال الفريقين السالفي الذكر ، ذكر حال فريق ثالث فقال : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ﴾ أى والذين آمنوا بالله وجميع الرسل وعملوا بشريعة آخرهم ، علما منهم بأن جميعهم مرسل من عند الله وما مثلهم إلا كمثل ولاية يرسلهم السلطان إلى البلاد ، ومثل الكتب التى جاءوا بها مثل القوانين التى يصدر السلطان مراسيمه للعمل بها ، فكل وال منهم إنما ينفذ أوامر السلطان ، وكل قانون يعمل به لأنه منه ، وكل قانون جديد ينسخ ما قبله ويمنع العمل به ، أولئك يؤتيهم الله أجورهم بحسب حالهم فى العمل ، لأنهم وقد صح إيمانهم به وبرسله ،

(١) من أنكر الألوهية الحققة لله فقد كفر ، ومن أنكر الرسالات جملة أو تفصيلا فقد كفر

ويهديهم إلى العمل الصالح إذ هو الأثر اللازم لذلك الإيمان الصحيح .

ولم يقل في هؤلاء إنهم هم المؤمنون حقاً كما قال ، ﴿ أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ لكلا يدور بخلد أحد أن كمال الإيمان يوجد بدون العمل الصالح ، فيغتر بذلك ويترك العمل النافع ، وهذا مما يتلاءم مع نصوص الدين ، فلقد وصف الله المؤمنين حقاً بقوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ (١)

﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أى وكان الله غفوراً لهفوات من صح إيمانه ولم يشرك بربه أحداً ، ولم يفرق بين أحد من رسله ، رحيماً به يعامله بالإحسان ويضاعف حسناته ويزيد على ما وعد تفضلاً منه ورحمة .

من قبائح أهل الكتاب

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَبِينَا مُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا (١٥٢) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّثْقًا غَلِيظًا (١٥٤) فِيمَا نَقُضُهُمْ مِّثْقَهُمْ وَكُفِّرِهِمْ بَيَّأْتِ اللَّهُ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)

المفردات : ﴿ جهرة ﴾ : المراد رؤيته جهرة (٢) .. ﴿ الصاعقة ﴾ : نار تنزل من السماء والظاهر أنها الشرارة الكهربائية التي تظهر في السماء .. البيئات : الدلائل الواضحة على نبوة موسى كفلق البحر واليد البيضاء والعصا . ﴿ الطور ﴾ : اسم الجبل الذي كانوا مقيمين أسفله ... لا تعدوا في السبت : لا تظلموا أنفسكم بالصيد فيه .. ﴿ غلف ﴾ : جمع غلاف وهو الظرف والمراد أوعية للعلم

(٢) أى كما يرى الناس بعضهم مواجهة تعالى الله عن ذلك

فليست في حاجة إلى ما يقول ، ويصح أن يكون جمع أغلف والمراد : مغطاة بأغطية خلقية لا يصل إليها شيء مما تقول ... ﴿ طبع الله عليها ﴾ : ختم الله عليها بالخاتم وقيل صارت كالنقود المسكوكة فلا تقبل غير النقش الذي عليها ... ﴿ بهتاناً ﴾ : كذباً يبهت صاحبه عند سماعه ويتعجب منه

قوله تعالى : ﴿ يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ﴾ ، قال محمد بن كعب القرظي والسدي وقتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة ، وقال ابن جريج : سأله أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان^(١) بتصديقه فيما جاءهم به ، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد ، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك ، كما هو مذكور في سورة « سبحان »^(٢) في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيبك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾^(٣) ولقد أظهر الله مكنون نفوسهم ، وما انطوت عليه من عناد ، فقال في سورة الأنعام ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾^(٤)

قوله تعالى : ﴿ فقد سألو موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ﴾ وذلك كما جاء بيانه في سورة البقرة : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾^(٥) وهنا يقول تعالى : ﴿ فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ والصاعقة نار من السماء ، أو ما يعبر عنه بالشرارة الكهربائية ، أزهقت أرواحهم

ومن قبائحهم : أنهم اتخذوا العجل في غيبة موسى كما جاء ذلك مفصلاً في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾^(٦) وقال الله تعالى فيهم : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴾^(٧) وقد جاءت قصة العجل مفصلة في سورة طه في قوله جل شأنه ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري . . . إلى أن يقول تعالى : ﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً . ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري .

(١) أى إلى أشخاص بأسمائهم واعيانهم

(٢) سورة الاسراء و بنى اسرائيل

(٣) الآيات رقم ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣ من سورة الاسراء

(٤) الآية رقم ٧ من سورة الأنعام

(٥) الآية رقم ٥٥ من سورة البقرة

(٦) الآية رقم ١٤٨ من سورة الأعراف

(٧) الآية رقم ١٥٢ من سورة الأعراف

قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴿١﴾

كل ذلك حدث بعدما جاءهم موسى بالآيات البينات ، كاليد و العصا و فلق البحر فعفا الله عن ذلك كما جاء في قوله جل شأنه في سورة البقرة : ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾ (٢) وفي قوله جل شأنه : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ (٣) وآتى الله موسى سلطاناً مبيناً وحجة قوية على صدق رسالته قوله تعالى : ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ (٤) الطور (٥) هو الجبل الذى كانوا يقيمون فى واديه فإن اليهود لما توردوا واستكبروا على الأخذ بأحكام الله فى التوراة وعتوا عتواً كبيراً ، لأنهم كما يقول بعض الحكماء : إن شعب بنى إسرائيل شعب ملح الرقة ، لما كان منهم ذلك رفع الله الجبل فوق رؤوسهم ليدفعهم دفعاً إلى الأخذ بما فى التوراة كما قال تعالى فى سورة الأعراف ﴿ أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ (٦) وقوله تعالى ﴿ بميثاقهم ﴾ أى بسبب أخذ الميثاق عليهم ﴿ وقلنا لهم ادخلوا الباب سجّداً ﴾ . المقصود به باب بيت المقدس أخبرناهم بذلك على ألسنة رسلنا إليهم ، والمقصود : ادخلوا الباب ساجدين خاضعين لله تواضعاً ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت ﴾ فقد نهاهم الله عن صيد الحيتان يوم السبت ، ولكنهم خادعوا واستعملوا الحيل . كما هو شأنهم فى كل زمان ومكان - قال تعالى فى سورة الأعراف . ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبثون لاتأتيتهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ (٧)

قوله تعالى : ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ الميثاق الغليظ العهد المؤكد ، أى : وأخذنا عهداً ليأخذن التوراة بقوة وليقيمن حدود الله ولا يتعدونها ويتبع ذلك البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام وهو موجود إلى الآن فى الفصل التاسع والعشرين ومن بعده من سفر تثنية الاشتراع ، وهو آخر التوراة التى بأيديهم .

قوله تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفروهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ﴾

هذه جرائم اقترفها اليهود ، نقضوا العهود والمواثيق وهذا طبعهم وديدهم ، قال تعالى ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون ﴾ (٨) . وكفروا بآيات الله وأنكروا المعجزات قال تعالى ﴿ وجاوزنا بينى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً

(١) الآيات من ٨٣ إلى ٩١ من سورة طه

(٢) الآية رقم ٥٢ من سورة البقرة

(٣) الآية رقم ٥٤ من سورة البقرة

(٤) من جبال سيناء وهو جبل المناجاة انزلت التوراة على موسى عنده

(٥) الآية رقم ١٧١ من سورة الأعراف وتنق الجبل رفعه من مكانه فوقهم حتى ظنوا أنه سيسقط عليهم

(٦) الآية رقم ١٦٣ من سورة الأعراف (٧) الآية رقم ٥٢ من سورة الأنفال

كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبرما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيتكم إلهاً ^(١) واعجب معى لقوم رأوا الآيات بأعينهم وأحسوها وعاشوا فيها ، فالبهر قد انفلق وصار كل فرق كالطود العظيم وأقدامهم لا تزال مبتلة بماء البحر ، جحدوا كل هذا ونسبوا من أنجاهم ، (وقالوا ياموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) ومن جرائمهم أنهم يقتلون الأنبياء ثم يقيمون أسواقهم كأن شيئاً لم يكن ومن الذين قتلوهم زكريا ويحيى .

قوله تعالى ﴿ بغير حق ﴾ هذا للبيان لا للاحتراز ، فليس هناك من الأنبياء ما يقتل بحق ، لأنهم إذا ذكروا بآيات الله ﴿ قالوا قلوبنا غلف ﴾ أى مغلفة محجوبة عن الحق كما قال مشركوا العرب لرسول الله ﷺ ﴿ قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ ^(٢).

قوله تعالى ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ والمراد بالطبع الختم ، وذلك بحجب النور عنها بسبب كفرهم وجحودهم ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ والإيمان القليل كالعدم كإيمانهم ببعض الأنبياء وكفرهم بالآخرين .

قوله تعالى ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ ، أى وبكفرهم بعيسى ، ورمى أمه وقذفها بالبهتان ، وهو أعظم الكذب والمراد به الزنا ، قال تعالى : ﴿ فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً ﴾ ^(٣)

قوله تعالى : ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ﴾ وهذا منهم إدعاء باطل وكذب على الله ورسوله ، وقد وصفوه بأنه رسول الله لا لإيمانهم بذلك ، إنما قالوها على سبيل التهكم والسخرية ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ أى وما قتلوه كما ادعوا وما صلبوه كما أشاعوا إنما خلع الله شبهه على الذى دل عليه ، وهو يهوذا الأسخريوطى قال الشيخ المراغى فى تفسيره :

هذا القول المؤذن بالجرأة على الحق بالباطل والاستهزاء بآيات الله وذكره بوصف الرسالة تهكماً واستهزاء بدعوته ، بناء على أنه إنما ادعى النبوة والرسالة فيهم ، لا الألوهية - كما ادعت النصارى - إذ جاء فى إنجيل يوحنا « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته »

﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ أى والحال أنهم ما قتلوه كما ادعوا وما صلبوه كما زعموا وشاع بين الناس ، ولكن وقع لهم الشبه ، فظنوا أنهم صلبوا عيسى ، وهم إنما صلبوا غيره ، ومثل هذا الشبه يحدث كثيراً فى كل زمان ، وتحكى عنه نوادر وحوادث غاية فى الغرابة لكنها قد وقعت فعلاً .

فقد ذكر بعض المؤلفين فى الطب الشرعى من الإنجليز حادثة وقعت سنة ١٥٣٩ فى فرنسا استحضر فيها ١٥٠ شخصاً للتعرف على شخص يدعى (مارتين جير) جزم أربعون منهم بأنه هو هو ،

(١) الآيات رقم / ١٣٨ ، ١٣٩ ، وجزء من ١٤٠ من سورة الاعراف ومعنى متبر ما هم فيه أن عملهم باطل يعاقب فاعله بالعذاب الشديد

(٢) الآية رقم ٥/ من سورة فصلت السجدة (٣) الآيات رقم / ٢٧ ، ٢٨ من سورة مريم

وقال خمسون إنه غيره ، والباقون ترددوا ولم يمكنهم أن يبدو رأياً ، ثم اتضح من التحقيق ان هذا الشخص كان غير مارتين جير وانخدع به هؤلاء الشهود المبتوتون وعاش مع زوجة مارتين محوطاً بأقاربه وأصحابه ومعارفه ثلاث سنوات ، وكلهم مصدق أنه مارتين ، ولما حكمت المحكمة عليه بظهور كذبه بالدلائل القاطعة استأنف الحكم في محكمة أخرى فأحضر ثلاثين شاهداً أقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين وقال سبعة إنه غيره وتردد الباقيون

على أن هذا الحادث^(١) من خوارق العادات التي أيد الله بها نبيه عيسى بن مريم عليه السلام وأنقذه من أعدائه ، فألقى شبهه على غيره وغير شكله فخرج من بينهم وهم لا يشعرون ، وفي أناجيلهم وكتبهم نصوص متفرقة تؤيد هذا الوجه .

قوله تعالى : ﴿ وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾

المعنى أن الذين اختلفوا في شأن عيسى من أهل الكتاب لفي تردد من حقيقة أمره ، إذ ليس لهم به من علم قطعي الثبوت وإنما هم يتبعون الظن والقرائن التي ترجح بعض الآراء على بعض ، وقد جاء في بعض الأناجيل التي يعولون عليها أنه قال لتلاميذه : (كلكم تشكون في هذه الليلة) أي الليلة التي يطلب فيها للقتل (إنجيل متى)

وإذا كانت أناجيلهم تنطق بأنه أخبر تلاميذه أو عرف الناس بأنهم سيشكون فيه في ذلك الوقت ، وخبره صادق قطعاً ، فهل من العجيب اشتباه غيرهم وشك من دونهم في أمره ؟

قوله تعالى : ﴿ وما قتلوه يقينا ﴾ أي وما قتلوا عيسى بن مريم وهم متيقنون أنه هو بعينه ، إذ هم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة والأناجيل التي يعول عليها صريحة في أن الذي أسلمه إلى الجند هو يهوذا الأسخريوطي ، وقد جعل لهم علامة أن من قبله يكون هو المسيح ، فلما قبله قبضوا عليه ، وإنجيل برنابا^(٢) يصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الأسخريوطي نفسه ظناً أنه هو المسيح لأنه ألقى عليه شبهه ومن هذا تعلم أن الجند ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية .

الخلاصة : أن روايات المسلمين جميعها متفقة على : أن عيسى عليه السلام نجا من أعدائه ومريدي قتله فقتلوا آخر ظناً منهم أنه هو - فإن قال قائل : إذا كان المسيح قد نجا من القتل والصلب ، فأين (هو) ؟؟

نقول : إن الله تعالى أجاب عن هذا ﴿ بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ وهذه عقيدة المسلم ، وليس رفع عيسى أمراً غريباً بعد أن أخبرنا الله تعالى بقوله : ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾^(٣) فليس رفع أهل الأرض إلى السماء بمستبعد على من يمسك

(١) أي إلقاء الله شبه على يهوذا الخاوري الذي خان رسول الله عيسى عليه السلام

(٢) ينظر في الفصول : الخامس عشر بعد المائتين وما بعده من إنجيل برنابا بتحقيق الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله - وطبع محمد علي

(٣) جزء من الآية رقم ٤/ من سورة الحديد

السموات والأرض أن تزولا وليس ببعيد على من قال وقوله الحق : ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾^(١) وبعد قوله تعالى : ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ يجب التسليم واليقين فيما قاله أصدق القائلين ، وليس لأحد أن يتجاوز حدود العبودية ، فيسأل كيف رفع وكيف حاله في السماء ؟ لأن ما أخبرنا الله به وجب التصديق به والوقوف عنده ، ومعاذ الله أن يقول المسلم رجماً بالغيب

قوله تعالى : ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ عزيزاً لا يغلب ولا يعجز حكيماً لا يعبث ، فقد رفعه بعزته وقدرته وفي الوقت الذي هجموا عليه ليقتلوه فكان حكيماً إذ نجاه منهم

قوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ الضمير في قوله تعالى ﴿ ليؤمنن به ﴾ أى بالمسيح ، والضمير في قوله تعالى : ﴿ قبل موته ﴾ أى قبل موت الكتابي ، فما من أحد من أهل الكتاب يحضره الموت : يهوديا كان أو نصرانيا إلا ويرى المسيح وقد برأ من أقوالهم فيه ، يأتيه مقراً بأنه عبد الله ورسوله موجبا إياه بما قاله فيه من أنه الله أو ابن الله ، فإذا ما قامت الساعة وقف المسيح شهيداً عليهم بالضلال ومجاوزة الحق ﴿ وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾^(٢) وإنما يسأله الله هذا السؤال وهو العليم بكل شيء ويعلم أنه دعاهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، يسأله ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجارة في حلقومهم على لسانه ، أى هذا الذي زعمتموه إلهاً أو ابناً لله يبرأ من قولكم ويعلمها صريحة واضحة في ساحة العرض على الله .

قال بعض العلماء^(٣) في تفسير هذه الآية : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾

الخ ...

أى وإن كل أحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق في أمر عيسى وسواه من أمور الدين ، فيؤمن بعيسى إيمانا حقا لازيغ فيه ولاضلال ، فاليهودى يعلم أنه رسول صادق في رسالته وليس بالكذاب ، والنصراني يعلم أنه عبد الله ورسوله ، وليس بإله ولا هو باين لله وفائدة إخبارهم بذلك بيان أنه لا ينفعهم حينئذ فعلهم أن يبادروا به قبل أن يضطروا إليه ، مع عدم الجدوى والفائدة ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ أى ويوم القيامة يشهد عيسى عليهم بما تظهر به حقيقة حاله معهم ، كما حكى الله عنه من قوله : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً

(١) جزء من الآية رقم ٤٤ من سورة فاطر

(٢) الآيتان رقم ١١٦ ، ١١٧ من سورة المائدة

(٣) قال بذلك ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة ، رواه القرطبي ج ٦ ص ١٠ وما بعدها

مادمت فيهم ﴿١﴾ فهو يشهد للمؤمنين منهم بالإيمان حال التكليف والاختيار ، وعلى الكافر بالكفر ، إذ هو مرسل إليهم وكل نبي شهيد على قومه كما قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ ﴿٢﴾

وقد ورد في الآثار ما يدل على اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم من الآخرة فيبشرون برضوان الله أو بعذابه وعقوبته ، روى البخارى عن عبادة بن الصّامت قال : قال رسول الله ﷺ « إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، وإن الكافر إذا حضر (حضره الموت) بشر بعذاب الله وعقوبته » وروى ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما « ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار »

وهذا يؤيد ما روى عن ابن (٣) عباس رضى الله عنها في تفسير الآية من أن الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح مع الإنكار الشديد والتقيح .

جرائمهم وعقوبتهم

فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ وَآحَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦١﴾ وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٢﴾ لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٣﴾

المفردات : ﴿ هادوا ﴾ : المقصود بهم اليهود . ﴿ بظلم ﴾ : أى بسبب الظلم فالباء تفيد السببية . ﴿ بصددهم ﴾ : منهم . ﴿ الراسخون ﴾ : الثابتون في العلم المتقنون له .

كلمة عن المسيح ابن مريم

قبل أن نأخذ في تفسير هاتين الآيتين نرى من المفيد - وقد سبق الحديث عن المسيح ابن مريم - نرى أن نذكر هنا ماورد في شأن المسيح من نزوله قبل الساعة ، وذلك تنمة للفائدة .

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه مائة سؤال عن الإسلام الجزء (٤) الثانى

وردت أحداث بين يدي الساعة نحب أن نشرح بعضها من ذلك نزول عيسى بن مريم وعيسى بشر

(٣) القرطبي ج ٦ ص ١٠ وما بعدها

(٤) ص ٧٩ وما بعدها

(١) جزء من الآية رقم ١١٧ من سورة المائدة

(٢) الآية رقم ٤١ من سورة النساء

كريم ونحن المسلمين نرفض أن يكون إلهاً أو ابن إله وكتابنا يقول فيه : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ﴾^(١).

ثم يقول : ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ﴾^(٢) وهذا تلميح إلى نزول عيسى قبيل الساعة بيد أن السنة جاء بها تصريح واضح ، قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية » ولماذا ينزل ؟ ليكذب بنفسه من زعموه آلهما وهم جماهير غفيرة ، وفي حديث آخر : أنه سينزل بين المسلمين وهم أتباعه الحقيقيون فيقاتل معهم الصليبيين حتى يهزمهم ويسقط دولتهم ، عن جابر بن عبد الله قال رسول الله ﷺ « لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى بن مريم فيقول له أميرهم : تعالى صلى بنا - يعرض عليه إمامة المسلمين - فيقول عيسى : لا إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمه الله تعالى لهذه الأمة .

والحديث يشير إلى أن الإسلام خاتم الرسالات وأن عيسى لن يجيء بجديد »^(٣)

قوله تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴾ . ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية سببين من الأسباب الكثيرة التي عاقب الله اليهود بها عقاباً دنيوياً وأخروياً ، وكفى بالظلم داءً وهل أهلك الله الأمم إلا عندما استشرى فيها هذا الداء الوبيل ، وآيات القرآن العظيم خير شاهد على ما ذكرنا ، من ذلك قوله تعالى ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾^(٤) وقوله جل شأنه ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾^(٥) وقوله تبارك اسمه ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾^(٦) وقوله عز وجل : ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾^(٧) وقوله جل جلاله : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾^(٨) وقوله عظمت حكمته : ﴿ وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليّ المصير ﴾^(٩) وقال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » وقال : « من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم ، فقد خرج عن الإسلام » وقال تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾^(١٠) وجاء في الحديث القدسي الجليل عن الله تعالى ، قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا »

وجاء في حديث قدسي آخر عن الله تعالى قال : « أشد غضبي على من ظلم من لم يجد له ناصراً غيري ، واشتد غضبي على من وجد مظلوماً . فتندر أن ينصره فلم ينصره »

- | | | | |
|-----|------------------------------------|------|-----------------------------------|
| (١) | سورة الزخرف الآية / ٦١ | (٦) | الآية رقم ١١٧ من سورة هود |
| (٢) | سورة الزخرف الآية / ٦٢ | (٧) | جزء من الآية رقم ٥٩ من سورة القصص |
| (٣) | مائة سؤال عن الإسلام ج ٢ ص ٧٩ ، ٨٠ | (٨) | الآية رقم ٤٥ من سورة الحج |
| (٤) | جزء من الآية رقم ١٣ من سورة يونس | (٩) | الآية رقم ٤٨ من سورة الحج |
| (٥) | جزء من الآية رقم ١١٧ من سورة الكهف | (١٠) | الآية رقم ١١٣ من سورة هود |

فإذا أضيف إلى ظلم اليهود صدهم ومنعهم كثيرا من الناس عن سبيل الله وطريق الهداية ، كان الجرم فظيعا وكانوا جديرين بأن يحرم الله عليهم طيبات كانت قد أحلت لهم ، وذلك كما جاء في قوله تعالى ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا عليهم كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾^(١)

قوله تعالى : ﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾ ، أى يسبب أخذهم الربا وقد نهوا عنه على السنة أنبيائهم ، والتوراة التى بين أيديهم إنما تصرح بتحريم أخذهم الربا من شعبهم ومن إخوانهم دون الأجانب ، فقد جاء في سفر الخروج : « إن أفرست فضة لشعبي الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرأى لا تضعوا عليه ربا » وفى سفر تثنية الاشتراع « لا تقرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا شيء ما مما يقرض بربا للأجنبي تقرض بربا تقرض بربا » ولكن لأخيك لا تقرض بربا وهذه عبارة التوراة التى كتبت بعد السبي^(٢) ، وثبت تحريفها بالشواهد الكثيرة ، أما النسخة التى كتبها موسى فقد فقدت باتفاق اليهود والنصارى ، وأنبيائهم قد نهوا عن الربا إطلاقاً ، فلم يقيدوه بشعب إسرائيل كقول داود في المزمور الخامس عشر : « فضته يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة من البريء » وقول سليمان في سفر الأمثال : « المكثر ماله بالربا والمراحمة فلن يرحم الفقراء بجمعه » .

﴿ وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾ أى بالرشوة والخيانة ونحوهما مما أخذ فيه المال بلا مقابل يعتد به .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾^(٣) والسحت : الكسب الحرام فقد كانوا يأخذون أثمان الكتب التى يكتبونها بأيديهم ثم يقولون هى من عند الله .

وبعد أن ذكر وجوه الذنوب التى اقترفوها والجرائم التى ارتكبوها بين جزاءهم عليها فى الآخرة فقال :

﴿ وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾ أى وأعدنا للذين كفروا منهم برسل الله عذاباً مؤلماً فى نار جهنم خالدين فيها أبداً .

وبعد أن بين فى هذا السياق سوء حال اليهود وكفرهم وعصيانهم وأطلق القول فى ذلك ، وكان هذا مما يوهم أنه شامل لكل أفرادهم ، جاء الاستدراك عقبه ببيان حال خيارهم الذين لم يذهب عمى التقليد بنور عقولهم ، فقال : ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ أى لكن أهل العلم الصحيح بالدين منهم ، المستبصرون فيه غير التابعين للظن ، الذين لا يشترون به ثمناً قليلاً من المال والجاه ، والمؤمنون من أمتك إيمان إذعان لا إيمان عصبية وجدل ، يؤمنون بما أنزل إليك من البينات والهدى ، وما أنزل على موسى وعيسى وغيرهما من الرسل ، ولا يفرقون بين الله ورسله

(١) الآية رقم ١٤٦/ من سورة الأنعام

(٢) عندما حزب البابليون المعبد أسروا جميع شعب اليهود وساقوهم عبيداً إلى بابل

(٣) جزء من الآية رقم ٤٢/ من سورة المائدة ، وقد كان الفرنسيون والكتبة فى ساحة المعبد يبيعون النصوص منسوبة إلى الله وماهى من عند الله

روى ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الآية نزلت في عبد الله بن سلام وأسيّد بن سعيه وثعلبة بن سَعِيه حين فارقوا يهود وأسلموا .

« والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر » أى والمؤمنون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر مثل المقيمين الصلاة فى استحقاق المدح بالتبع ، إذ إقامتها تستدعى إيتاء الزكاة ، فإن الذى يقيمها على الوجه الذى طلبه الدين لا يمنع الزكاة ، إذ هى مما تزكى النفس وتعالى الهمة وتهون على النفس المال قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمَصْلِين ﴾ ^(١)

الآيات

﴿أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أَي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَفُوا بِمَا ذَكَرَ كُلَّهُ سَنُعْطِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا لَا يُذَرِّكَ وَصْفَهُ إِلَّا عِلَامَ الْغُيُوبِ .

﴿١٦٦﴾ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٧﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٨﴾ رُسُلًا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٩﴾ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ الْمَكِينُ ﴿١٧٠﴾ يُشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٧١﴾

المفردات : ﴿أوحينا﴾ : الإيحاء يأتي في اللغة على معان ، فيها : الإشارة كقوله تعالى : ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾^(٢) والإلهام ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾^(٣). وعلى ما يكون غريزة ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا﴾^(٤) وعلى الإعلام في خفاء ﴿شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾^(٥) الأسباط جمع سبط وهو ولد

(٤) جزء من الآية رقم ٦٨/ من سورة النحل.

(٥) جزء من الآية رقم ١١١ من سورة الأنعام

(٣) جزء من الآية رقم ٧/ من سورة القصص

الولد والمراد أبناء يعقوب لصلبه أو أولاد أولاده ... ﴿زبوراً﴾ : مكتوباً وكل كتاب زبور والمراد به الكتاب المنزل على داود عليه السلام ﴿المناسبة﴾ : نعى الله على أهل الكتاب عموماً أنهم يفرقون بين الأنبياء فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، ثم تعرض القرآن لليهود خاصة وأنهم سألوا محمداً ﷺ ﴿عناداً واستكباراً﴾ : أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ، آية لهم ، ولم يكن هذا العناد جديداً على اليهود ، فقد سألوا موسى قديماً أكبر من هذا ، وفعلوا القبائح وكفروا بعبسى^(١) وبهتوا أمه وحاولوا قتله وصلبه الخ ما ذكر .

ولولا هذا لآمنوا بك وصدقوك ، فأنت أوضح دليلاً وأقوم قبلاً ، على أن الإيحاء من الله إليك كان كالأنبياء السابقين ، فمالهم يفرقون بين نبي ونبي ؟ وما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟

إنا بما لنا من العظمة والقدرة ، قد أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن إيحاءً كما إيحائنا إلى الأنبياء قبلك ، فلست بدعاً من الرسل وهم قد آمنوا بهم ، فكيف يطلبون منك أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ؟ على أنهم لو آمنوا بالرسالة حقيقة لآمنوا بك ، فالوحي جنس واحد لم يتغير ، وفي كتبهم البشارة بك ووصفك ، وحقيقة الإيحاء - كما قال المرحوم الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد .

عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة

إنا أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى المشهورين من الأنبياء قبلك ، كنوح ، وخص بالذكر أولاً لأنه أقدم نبي مرسل على أن قومه كذبوه فعذبوا ، وهو الأب الثاني للبشر ، وأوحى إلى النبيين من بعده لاسيما إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ، والذي يدين له العرب وأهل الكتاب ، وإسماعيل ابنه الأكبر وأبو العرب وجد المصطفى ﷺ ، وإسحاق ابن إبراهيم وأبو يعقوب المسمى بإسرائيل ، وإليه تنسب اليهود والأسباط ، وهم حفدة يعقوب ، وقيل أولاده لصلبه وعددهم عشرة ، وأولاد يوسف اثنان فكان المجموع اثني عشر سبطاً ، وهم في نسل إسحاق كالقبائل في نسل إسماعيل ، وعيسى بن مريم ، وقدم على غيره لأنه محل طعن اليهود ، وأيوب ويونس وهارون وسليمان بن داود ، وخص هؤلاء جميعاً بالذكر مع اندراجهم في لفظ النبيين لشرفهم وكرامتهم على الله .

وآتيناه داود كتاباً زبوراً ، قال القرطبي^(٢) : كان فيه مائة وخمسون سورة ، ليس فيها حكم من الأحكام ، وإنما هي حكم ومواعظ ، وتمجيد وثناء على الله تعالى ، وأرسلناك كما أرسلنا رسلاً غير هؤلاء ، قد قصصناهم عليك من قبل في سورة الأنعام ، ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾^(٣) الآيات وأجمع السور لقصصهم سورة هود والشعراء^(٤) .

(١) بهتوا من البهتان وهو التهمة الباطلة وهو ما سبق ذكره في الآية رقم ١٥٦ وكفروهم وقولهم حل مريم بهتانا عظيماً

(٢) الجامع لاحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي ج ٦ ص ١٧

(٣) الآيات من رقم ٨٤ إلى ٨٧ من سورة الأنعام

(٤) وكذلك سورة الأعراف ، بينما لخصت أخبارهم سور أخرى كالأنبياء والصافات وص

وهناك أرسلنا رسلاً لم نقصصهم عليك لأن أهمهم مجهولة غير معروفة ، وليس في ذكرهم كبير فائدة ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ سورة هود^(١) ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ وخص موسى بهذه الكرامة على سبيل التأكيد ، لأن قومه هم المقصودون بالحديث ، وقد كلم الله موسى تكليماً خاصاً ممتازاً عن غيره ، أما كيف كان ؟ وهل كان مشافهة أم لا ؟ فالله أعلم بذلك كله ، على أن وقوفنا على أسرار الأثير واستخدامه ونقل الحديث بالراديو والتلفزيون ، جعل الاعتراضات القديمة شيئاً بسيطاً لا يعبأ به فالله الذي أقدر بعض المخلوقات على الوصول إلى هذا قادر جداً على خلق أشياء ليس لها مقياس معروف ولا حد مألوف .

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾^(٢) والظاهر أن تكليم موسى عليه السلام كان من النوع الثاني .

الخلاصة : إنا أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى فلان وفلان من الأنبياء ، وآتيناك كتاباً كما آتيناهم كتبهم كتاباً ، وأرسلناك للناس كافة رسولا ، كما أرسلنا لهم رسلاً ، فما لهؤلاء القوم يفرقون بين نبي ونبي ، ويؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، أرسلنا أولئك الرسل الذين قصصنا عليك بعضاً منهم مبشرين من يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر بالثواب الأبدى جنة خالدين فيها أبداً ، ومنذرين من يكفر بالله ورسله واليوم الآخر بالعقاب الصارم ناراً وقودها الناس والحجارة ، أرسلنا لئلا يكون للناس حجة على الله ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزي ﴾^(٣) .

وحجتهم أنهم يقولون لولا أرسلت إلينا رسلاً تبين لنا الشريعة ، وتعلمنا ما لم نعلم إذ القوة البشرية مهما تكن تعجز عن إدراك كل جزئيات الخير والشر ، على أن عامة الناس لا يفرقون بين الضار والنافع ، مع احتياج الكل إلى قادة يقودونهم إلى الصراط المستقيم ، صراط الله العزيز الحميد ، ومن الذي كان يأتي بأخبار الغيب من حساب وجزاء وثواب وعقاب ؟ وما أتى به الرسل موافق لسنن الفطرة السليمة ملائم للطبائع الزكية ، ومع ذلك يترتب عليه ثواب عظيم وعقاب أليم .

وكان الله عزيزاً لا يغلبه متعنت ولا مكابر ، حكيماً في كل صنع صنعه ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾^(٤) .

وهؤلاء اليهود قد أنكروا نبوة النبي ﷺ ، ولم يشهدوا برسالته وهي أوضح من الشمس فسألوه كتاباً من السماء إنهم لا يشهدون بذلك ، ولكن الله يشهد بالقرآن ، وكفى به شاهداً فالله أنزله عليك بعلمه الخاص ، الذي لا يعلمه سواه ، ولقد صدق الله في وصفه ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾^(٥) تحدت به الكل فعجزوا ﴿ قل لكن اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان

(٤) جزء من الآية ١٥ من سورة الإسراء

(٥) جزء من الآية الثانية من سورة البقرة

(١) الآية رقم ١٢٠/ من سورة هود

(٢) من الآية رقم ٥١/ من سورة الشورى

(٣) الآية رقم ١٣٤/ من سورة طه

بعضهم لبعض ظهيرا ﴿١﴾ وهو القرآن الكامل في كل شيء ، المشتمل على قوانين وشرائع تكفل لمن يتبعها حياة سعيدة وعزة ورخاء .

فكان القرآن بهذا يشهد للنبي ﷺ بصدقه ولسان حاله يقول صدق محمد في كل ما يبلغه عن ربه ، والملائكة ومنهم جبريل يشهدون لك بالرسالة ، فثبتت شهادة الله تعالى بما أنزله عليك من القرآن ، إذ لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ، ولو اجتمع الإنس والجن ، ولا يعقل أن يكون من وضعك ، فأنت النبي الأمي العربي الذي نشأ في بيئه جاهلية .

﴿ قل أى شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم ﴾ (٢) الأنعام .

جزاء الكافرين

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرًا لَّهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

التفسير

بعد أن دلت الآيات على نبوة محمد ﷺ ، وأنه لاجحة للكفار المعاندين ، وأن الله شهد له بما أنزله عليه بعلمه من القرآن ، أخذ ينذر الكفار ويهددهم بالعذاب الشديد ، وينذرهم سوء العاقبة وبئس المصير ، إن الذين كفروا بالله ورسوله ، وصدوا عن سبيل الله بأعمالهم التي يقلدهم فيها غيرهم ، قد ضلوا وأضلوا ضلالاً بعيداً عن الصواب جداً ، إن الذين كفروا وظلموا أنفسهم وغيرهم ياتباعهم الشيطان ، وبعدهم عن هدى الرحمن ، لم يكن من شأن الله وصفته أن يغفر لهم ، فالله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ولم يكن ليهديهم ويوفقهم إلى طريق أبدأ إلا طريق جهنم وبئس المصير ، فهم قد ملأوا النفس والقلب من ظلام الكفر والضلال ، حتى لم يعد فيه متسع للنور والهداية ، هؤلاء لهم جهنم خالدين فيها مخلوداً أبدياً ، الله أعلم بما يتناسب مع ما قدموا من أعمال وما جبلوا عليه وكان ذلك على الله سهلاً ويسيراً .

يأيتها الناس : قد جاءكم الرسول الكامل والمعهود عند أهل الكتاب ، جاءكم بالقرآن والحق والخير والهدى والفلاح ، فآمنوا يكن الإيمان خيراً لكم ، آمنوا واقصدوا خيراً لكم ، وإن تكفروا فاعلموا أن الله معذبكم ومجازيكم على كفركم فليس هناك عذر لمعتذر ، وليس وراء الموت إلا الجنة أو النار ، وليس

(٢) من الآية رقم ١٩/ من سورة الأنعام

(١) الآية رقم ٨٨/ من سورة الاسراء

يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ولا يجهل شيئاً فيهما، وهو الغنى عن عبادتكم وما ذلك كله إلا أن لله ما في السموات وما في الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً وتصريفاً وحكماً ، سبحانه وتعالى العليم بخلق الحكيم في صنعه .

المسيح بن مريم في نظر القرآن

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهَوْا خَيْرَ الْكُفِّ إِنَّما اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

المفردات : ﴿ لا تغلوا ﴾ : الغلو مجاوزة الحد من جهة التفريط أو الإفراط ^(١) « وكلمته » المراد أنه حدث بكلمة « كن » التكوينية لا بمادة أخرى كغيره من الناس ﴿ وروح ﴾ : وجد بنفخ من روح الله وهو جبريل ﴿ يستكبر ﴾ : الاستكبار أن يجعل الإنسان نفسه كبيرة غروراً منه وإعجاباً بها المناسبة :

بعد أن حاجَّ الله اليهود وألزمهم كلمة التقوى والطريقة المثلثي أردف ذلك بمحاجة النصارى وألزمهم جميعاً الرأي الوسط في عيسى بن مريم .

التفسير

يا أهل الكتاب لا تكونوا مغالين في الدين ، ومتجاوزين الحدود فيه فلا تكفروا بعيسى وتبهتوا أمه ، وتحقروه وتهينوه كم فعلت النصارى ، ولا تقولوا على الله إلا القول الحق الثابت بالنقل المتواتر ، الذي يستحيل معه الكذب ، أو المؤيد بالحجج العقلية الدامغة ، أما القول بالحلول واتخاذ الصاحبة والولد ، فكذب وبهتان وخرافة وثنية ، موسى وعيسى والأنبياء جميعاً براء منها .

إنما المسيح عيسى بن مريم البتول الطاهرة الصديقة النقية التي أنبتها الله نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا الرجل الصالح ، والتي برأها القرآن الكريم ، إنما المسيح عيسى رسول الله إلى بني إسرائيل ، أمرهم

(١) التفريط أى التقصير عن الواجب من الحق ولا فراط أى الزيادة في الآثام والخطايا

بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، وأمرهم بعبادة الله وحده ونهاهم عن الكفر به والشرك والتثليث ، وزهدهم في الدنيا ، وحثهم على التقوى ، وبشرهم بخاتم النبيين والمرسلين : ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾^(١) وإنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وهو مكون بكلمته « كن » التكوينية : ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾^(٢) نعم كل مولود له سبب ظاهر وهو اتصال الجنسين ، وله سبب حقيقى وهو إرادة الله المعبر عنها بكلمة ﴿ كن ﴾ فلما انتفى مع عيسى السبب الأول بالبرهان ، ثبت أن عيسى خلق بالسبب الثانى ، وهو كلمة « كن » ، أوصلها إلى مريم بواسطة جبريل : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ﴾^(٣) وهو مؤيد بروح كائنة منه سبحانه وتعالى ، لا بعضاً منه كما فهم المسيحيون ، وإلا لكان كل شيء بعضاً من الله بدليل قوله : ﴿ وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه ﴾^(٤) وكونه مؤيداً بروح منه يؤيده قوله : ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾^(٥) وقيل المعنى أن عيسى خلق بنفخ من روح الله وهو جبريل ويوضحه قوله تعالى : ﴿ التى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا ﴾^(٦) ، فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً^(٧)

وقال بعضهم المعنى أن المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ورحمة^(٨) منه وبقوله قوله تعالى : ﴿ ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴾^(٩) وما لنا نعجب من خلق عيسى بلا أب ؟ حتى تنكب المسيحيون الطريق ، وانغمسوا في الشرك والتثليث لهذا !

فهذا آدم خلق بلا أب وأم : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾^(١٠) وهذه حواء خلقت من آدم فقط .

وبماذا نرد أصول الحيوانات جميعاً ، وكما يقولون هل البيضة أصل أم الفرخة ؟ أيا كان فمن الذى أوجد الأصل الأول من الفرخة أو البيضة ؟ هو الله بلا تناسل وتزاوج معروف .

ومن الغريب أن بعض النصارى يفهمون قوله تعالى « وروح منه » أن عيسى ابن الله ، أو جزء الإله ، أو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، والذى أوقع المسيحيين في هذا هو التشابه في التوراة والإنجيل ، وما وصل إليهم عن طريق الوثنيين من اليونان والرومان والمصريين القدماء ، والبراهمة .

فالديانة المسيحية الصحيحة ديانة مبنية على أساس التوحيد الخالص البرىء لله سبحانه : ذاتا وصفة وفعلا ، ولكن الكنيسة أدخلت هذه الوثنيات والعقائد الزائفة في عقول أبنائها لأمر في أنفسهم ، ولما رأوا

(١) من الآية رقم ٦/ من سورة الصف

(٢) جزء من آيات عديدة في سور القرآن الكريم ١١٧/ من سورة البقرة ، ٤٧ من سورة آل عمران ٣٥ من سورة مريم ٦٨ من سورة

(٧) جزء من الآية رقم ١٧/ من سورة مريم

غافر

(٣) جزء من الآية رقم ٤٥ من سورة آل عمران (٨) ذكره الامام القرطبي في تفسيره ص ٢٣ من الجزء السادس

(٤) جزء من الآية رقم ١٣/ من سورة الجاثية (٩) جزء من الآية رقم ٢١ من سورة مريم

(٥) جزء من الآية رقم ٨٧/ من سورة البقرة (١٠) جزء من الآية رقم ٥٩/ من سورة آل عمران

(٦) جزء من الآية رقم ١٢/ من سورة التحريم ، ٩١ من سورة الأنبياء

القرآن يعارضهم في ذلك كذبوه وأنكروه ، وهو الذي برأ مريم من قول اليهود ، ووضع عيسى الموضع اللائق ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾^(١) وفى أقوال الأحرار من المسيحية ما يؤيد هذا ، وهى موجودة فى كتاب الشيخ رشيد رضا (تفسير الشيخ محمد عبده) الجزء السادس عند تفسير هذه الآية ، وإذا كان الأمر كذلك : فآمنوا بالله الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وآمنوا برسله جميعاً لا فرق بين نبي ونبي ، ولا تقولوا الآلهة ثلاثة « الأب والابن والروح القدس » أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر ، وكل منها إله كامل ، ومجموعها إله واحد فإن هذا إشراك بالله وترك للتوحيد الذى هو ملة أبيكم إبراهيم ، وهذا كلام بنا فى العقل الراجح والفكر السليم ، إذ كيف يكون واحداً وثلاثة ؟ وكيف يحل الإله فى بعض خلقه وكيف يتحد ، وهل طبيعة : الإله كطبيعة البشر أظن^(٢) لا. بل طبيعة البشر تتنافى مع طبيعة الملك فهذا لا يأكل ولا يشرب وعيسى وأمه كانا يأكلان ويشربان^(٣).

وما ميزة عيسى عن غيره من الأنبياء ؟ أرسل مؤيداً بالمعجزات ، وكانت كغيرها لم تجر على سنن الطبيعة ، بل بقدرة الله وقوته كما نص القرآن الكريم ، وموسى الكليم ومحمد ﷺ كذلك ، فكيف تقولون إن عيسى إله ؟ ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ وقولوا قولا يكن خيراً لكم ، وأجدى من هذا العبث والوثنية والعصية الحمقاء إنما الله إله واحد لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون ، سبحانه أن يكون له ولد فليس المسيح ابنه ، إذ الولد يقتضى اتصالاً جنسياً بالأم ، وحاجة إليه وإلى أمه حتى يبرز إلى الوجود ، أفليق هذا ؟ لا ... يا قوم : الله له مافى السموات ومافى الأرض ملكاً وخلقاً وعبداً وتصريفاً ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾^(٤)

لا فرق فى ذلك بين الملائكة والنبيين والناس أجمعين ، وهل الإله فى حاجة للولد ؟ ليفيم اسمه ويحفظ ذكره ويرثه بعد موته ، وهل هو فى حاجة إلى الولد ليعينه ؟ كلا فالله قوى قادر مالك الملكوت حتى دائم باق بعد فناء خلقه ، صاحب الأمر والتصرف ، وكفى بالله وكيل .

وهذا عيسى نفسه يقول فى إنجيل يوحنا « وهذه هى الحياة الأبدية أن تعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته » فهذا نص صريح فى أن المسيح رسول الله فقط ، وفى الإنجيل أيضاً « من يقبلكم يقبلنى ومن يقبلنى يقبل الله الذى أرسلنى » لن يتكبر المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة الذين هم أعظم من المسيح خلقاً وقوة ، فهم أعلم بذات الله ومكانته . ومن يستنكف عن عبادة الله وحده ويتكبر ويدعى الإشراك أو التثليث فيحشرهم إليه جميعاً ، ويجازيهم على كل ذلك فأما

(١) الآية رقم ٣٤/ من سورة مريم

(٢) الظن ها بمعنى اليقين الجازم

(٣) وقد جاء ذلك فى الآية رقم ٧٥/ من سورة المائدة : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ... » الآية

(٤) الايات رقم ٩٣، ٩٤، ٩٥ من سورة مريم

من آمن بالله وحده والعاملون الصالحات ، فيوفيهم أجورهم كاملة ويزيدهم من فضله ، فهو واسع الفضل كثير الخير .

وأما الذين استنكفوا وتكبروا فهم المعذبون عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ، ﴿ لا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾^(١).

الدعوة العامة

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمْ بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ۖ فَسُيِّدْ خَلُّهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

المناسبة :

بعد أن حاج القرآن النصارى فأفحمهم ، ومن قبل ذلك حاج اليهود فألزمهم ، وناقش المنافقين وكشف سترهم ، وظهرت نبوته ﷺ ظهور الشمس في رابعة النهار ، نادى الناس جميعاً ودعاهم إلى اتباعه .

أيها الناس قد جاءكم برهان واضح ونور ساطع ، يبين لكم حقيقة الإيمان بالله ، وهو من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، ذلك البرهان هو محمد ﷺ النبي العربي الأمي ، الذي نشأ في الجاهلية لم يجلس إلى معلم ولم يؤدبه مؤدب ، ولم يتعلم في جامعة ولا تخرج في معهد ، ولم يعد إعداداً لتحمل أكبر رسالة في الوجود من إنسان !

كان في شبابه الأمين الصادق ، وعند رجولته الكاملة كان الداعية إلى الله بأقوى أسلوب وأوضح بيان ، وقد كان المثل الأعلى في عمله وعلمه ورسالته ، وسياسته وقيادته وزعامته ، فحقاً أدبه ربه فأحسن تأديبه ، نعم كان برهانا عن صدق رسالته ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾^(٢)

وأُنزل الله إليكم مع هذا البرهان نوراً مبيناً هو القرآن الكريم ، ظهر في الوجود بعد ما عميت القلوب وغشيت الأبصار من الوثنية المشركة واليهودية الكاذبة والمسيحية الضالة ، ظهر في الكون فأنار الوجود وأضاء القلوب وأحيا النفوس ، وأوضح الطريق لعبادة الله حق العبادة وكان محكم التنزيل كاملاً في السياسة والاقتصاد والاجتماع ، والعمران والعلوم الكونية والإلهية والسياسية الحربية للأمم

فحقاً هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين ﴾^(٣) فمن تأمل هذا البرهان القوي ، وذلك النور

(١) الآية رقم ١٦/ من سورة الانفطار (٣) الآيات من ١٩١/ إلى ١٩٥ من سورة الشعراء .

(٢) الآية رقم ١٦/ من سورة الانفطار (٣) الآية رقم ١٢٤/ من سورة الأنعام

السماعي ، ظهر له أن محمداً ﷺ برهان من الله وحجة على أحقية هذا الدين ، وأن كتابه القرآن أنزله الله بعلمه وشهد له بصدقه .

فأما الذين آمنوا به واتبعوا نوره واعتصموا بحبله فسيدخلهم ربهم في رحمته وفضله في الدنيا والآخرة ويهديهم إلى صراطه المستقيم ، فمن يعمل بالقرآن وحكمه كانت له العزة في الدنيا والكرامة ، وفي الآخرة الجنة والرضوان والسلامة .

حق الأخوة في الميراث

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذِ كَرِمْثُلِ حِظُّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

المفردات : ﴿ هلك ﴾ : مات .

سبب النزول :

روى أحمد والشيخان^(١) عن جابر بن عبد الله قال : « دخل على رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل فتوضأ ثم صب على فعقلت ، فقلت : إنه لا يرثني إلا كلاله^(٢) فكيف الميراث ؟ فنزلت آية الموارث »

وقال الخطابي أنزل الله في الكلاله آيتين إحداهما في الشتاء وهي التي في أول السورة وفيها إجمال ، ثم أنزلت الأخرى في الصيف وفيها كمال البيان وقيل إنها من آخر الآيات نزولاً^(٣)

يطلبون منك الفتيا أيها الرسول ، فيمن يورث كلاله - كجابر بن عبد الله - الذي ليس له ولد وارث ولا والد ، وله إخوة من أب وأم ، إذ هؤلاء لم يفرض لهم شيء ، إن الذي تقدم أول السورة الأخ لأم ونصيبه السدس فإن زاد فالثلث فقط كنصيب أمه .

والتفصيل إن امرؤ مات وليس له ولد ولا والد ، وله أخت لأب أو شقيقة (لأب وأم) ، فلها

(١) أحمد بن حنبل والشيخان : البخاري ومسلم

(٢) الكلاله من مات ليس له ولد ولا والد هذا رأى جمهور أهل العلم وقال غيرهم هم الورثة غير الأبناء والآباء : باختصار عن الجامع لاحكام

القرآن ج ٥ ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨

(٣) ذكره الامام مسلم عقب الحديث السالف ذكره

نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ذكر أو أنثى على الصحيح ، فإن كان من يرث بالأخوة أختين فلهما الثلثان مما ترك أخوهما ، وكذا إن كن أكثر من ثنتين - كأخوات جابر - فقد كن تسعاً ، وفي رواية سبعة ، فلهن الثلثان والباقي لمن يوجد من العصبة على ما هو مفصل في أبواب الميراث وإن كان الأخوة : رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين في حظهما وهو الثلثان ، يبين الله لكم هذه الأحكام لتعرفوها وتعملوا بها ، فلا تضلوا أبداً ، ﴿والله بكل شيء عليم﴾ فعليكم التمسك بهذه الأحكام إذ هي مصدر الخير والبركة لكم .

سورة المائدة

جاء في كتاب بصائر ذوي التمييز^(١) ما نصه :

اعلم أن هذه السورة مدنية بالإجماع سوى آية واحدة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ فإنها نزلت يوم عرفة في الموقف ورسول الله ﷺ راكب على ناقته العضباء فسقطت الناقة على ركبتها من ثقل الوحي وشرف الآية .

وعدد آياتها مائة وعشرون في عد الكوفي ، واثنان وعشرون في عد الحجاز والشام ، وثلاث وعشرون في عد البصري .

وكلماتها ألفان وثمان مائة وأربع ، وحروفها أحد عشر ألفاً وتسع مائة وثلاثة وثلاثون حرفاً . وسميت بسورة المائدة لا شتمها على قصة نزول المائدة من السماء .

مقاصد السورة

الأمر بوفاء العهود وبيان ، ما أحله الله تعالى من البهائم ، وذكر تحريم المحرمات ، وبيات إكمال الدين ، وذكر الصيد ، والجوارح ، وجلّ طعام أهل الكتاب ، وجواز نكاح المحصنات منهن ، وتفصيل الغسل والطهارة والصلاة ، وحكم الشهادات والبيئات ، وخيانة أهل الكتاب القرآن ومن أنزل عليه ، وذكر المنكرات من مقالات النصارى ، وقصة بنى إسرائيل مع العمالقة ، وحبس الله تعالى إياهم في التيه ، وحديث قتل قابيل أخاه هابيل ، وحكم قطاع الطريق ، وحكم السرقة وحد السراق ، وذم أهل الكتاب وبيان نفاقهم وتجسسهم ، وبيان الحكم بينهم ، وبيان القصاص في الجراحات وغيرها ، والنهي عن موالاته اليهود والنصارى ، والرد على أهل الردة وفضل الجهاد ، وإثبات ولاية الله ورسوله للمؤمنين ، وذم اليهود في قبائح أقوالهم ، وذم النصارى بفساد اعتقادهم ، وبيان كمال عداوة الطائفتين للمسلمين ، ومدح أهل الكتاب الذين قدموا من الحبشة ، وحكم اليمين وكفارتها وتحريم الخمر ، وتحريم الصيد على المحرم ، والنهي عن السؤالات الفاسدة وحكم شهادات أهل الكتاب وفصل الخصومات ، ومجاورة الأمم رسلهم في القيامة ، وذكر معجزات عيسى ونزول المائدة ، وسؤال الحق تعالى إياه في القيامة تقريراً للنصارى وبيان نفع الصدق يوم القيامة للصادقين .

فضل السورة :

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ وهو على راحلته فلم تستطع أن تحمله حتى نزل عنها » ويروى بسند ضعيف : « من قرأ هذه السورة أعطى من الأجر بعدد كل يهودى ونصرانى في دار الدنيا عشر حسنات ، ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات »

(١) هو كتاب بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمؤلفه محمد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ

وفي رواية : « من قرأ هذه السورة أعطى بكل يهودى ونصرانى على وجه الأرض ذرات ، بكل ذرة منها حسنة ودرجات كل درجة منها أوسع من المشرق إلى المغرب سبعمائة ألف ألف (ضعيف)

ويروى أنه قال : يا على من قرأ سورة المائدة شفع له عيسى وله من الأجر مثل أجر حوارى عيسى ويكتب له بكل آية قرأها مثل ثواب عُمَار بيت المقدس .

قال الشيخ المراغى فى تفسيره : هذه السورة تسمى سورة المائدة وسورة العقود وسورة المنقذة ، وهى مدينة بناء على المشهور من أن المدنى مانزل بعد الهجرة ولو فى مكة ، وقد روى فى الصحيحين عن عمر رضى الله عنه : أن قوله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ الخ نزلت عشية يوم عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع .

مناسبتها لما قبلها :

ووجه التناسب بينها وبين سورة النساء يتبين فيما يلى :

١ - أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحا وضمنا ، فالصرح : عقود الأنكحة والصداق والحلف والمعاهدة والأمان ، والضمنى : عقود الوصية والوديعة والوكالة والإجارة

٢ - أن سورة النساء مهدت لتحريم الخمر وسورة المائدة حرمتها البتة فكانت متممة لشيء مما قبلها .

٣ - أن معظم سورة المائدة فى محاجة اليهود والنصارى ، مع ذكر شيء عن المنافقين والمشركين ، وقد تكرر ذكر ذلك فى سورة النساء وأطيل فيه فى آخرها

ووجه تقديم النساء وتأخير المائدة : أن الأولى بدئت بياها الناس وفيها الخطاب بذلك فى مواضع وهذا بالتنزيل المكى ، والثانية بياها الذين آمنوا وفيها الخطاب بذلك فى مواضع ، وهذا أشبه بالتنزيل المدنى المتأخر عن الأول .

روى عن النبى ﷺ أنه قرأ سورة المائدة فى حجة الوداع وقال : « يا أيها الناس إن سورة المائدة آخر ما نزل فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتَنَّى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعْتَهُ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامَ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٠﴾

المفردات : ﴿أوفوا﴾ : الوفاء الإتيان بالشئ وافيا كاملاً لا نقص فيه ﴿بالعقود﴾ : بالعهود المؤكدة الموثقة ، وهى تشمل عقود الشرع فيما أحل وحرم وفرض ، وعقود الناس بعضهم مع بعض فى البيع والشراء والمناكحة وغير ذلك ﴿بهيمة﴾ : وهى مالا عقل لها سميت بذلك لإبهام أمرها من جهة نقص نطقها وفهمها وعدم تمييزها وعقلها ، وخصها العرف بذوات الأربع مع حيوان البر والبحر ﴿الأنعام﴾ : هى الإبل والبقر الشامل للدواب والجواميس والضأن الشامل للخراف والمعرز ، وألحق بها الظباء وبقر الوحش وحمرة ﴿شعائر﴾ : جمع شعيرة ، مأخوذ من الشعور والإعلام ، والمراد معالم دينه وخصت بمناسك الحج ﴿الهدى﴾ : ما يهذى إلى الحرم ويدبح فيه للفقراء ﴿القلائد﴾ : جمع قلادة وهو ما يعلق فى العنق ﴿آمين﴾ : قاصدين ﴿شأن﴾ : بغضهم بغضاً شديداً ﴿لايجرمكم﴾ : لا يحملنكم ولا يكسبنكم ﴿البر﴾ : ما اطمأن إليه القلب ﴿الإثم﴾ : كل ذنب ومعصية وهو ماحاك فى الصدر وخفت أن يطلع عليه الغير .

التفسير

هذا خطاب كريم من رب كريم جاء بعنوان الإيمان ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ والله جلّت قدرته وعظمت حكمته ، يخاطب المؤمنين لأنهم أسرع الناس امتثالاً لتنفيذ أمره واجتناب نهي

أتى رجل عبد الله بن مسعود فقال : اعهد لى ، فقال : « إذا سمعت الله يقول ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه » وعن الزهرى قال : « إذا قال الله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ افعلوا فالنبي ﷺ منهم »

ولصدر هذه السورة الكريمة من القيم والمعاني والتوجيهات والإرشادات الإلهية ، ماجعلنا نقف موقف الاعتبار ، عندما نعلم أن هذه الآيات كانت نص خطاب بعث به النبي ﷺ عمرو بن حزم إلى أهل اليمن ، قال ابن أبى حاتم بإسناده عن عمرو بن حزم عن أبيه قال : هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا الذى كتبه لعمر وبن حزم ، حين بعثه إلى اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السنة ويأخذ صدقاتهم ، فكتب له كتابا وعهدا ، وأمره فيه بأمره ، فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من الله ورسوله ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ عهد من محمد رسول الله ﷺ لعمر وبن حزم ، وقد أمره فيه بتقوى الله فى أمره كله فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »

المراد بالعقود : العهود ، فالوفاء بالعهد سمة بارزة من سمات الإسلام وقيمة راسخة من قيمه الأخلاقية ومثله العليا ، قال تعالى : ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد

جعلتم الله عليكم كفيلًا ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولًا ﴾ ﴿٢﴾ ومن صفات المؤمن أنه إذا قال صدق ، وإذا عاهد أوفى ، وإذا وعد أنجز

ومن خصال المنافق أنه إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ، ومن كانت فيه من هذه الخصال كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، ومن كانت فيه تلك الخصال كان منافقا خالصا ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون .

وقال الضحاك (أوفوا بالعقود) أى ما أحل الله وحرم ، وما أخذ الله من الميثاق على من أقرّ بالإيمان بالنبي والكتاب : أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال

وقال زيد بن أسلم (أوفوا بالعقود) قال : هى ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشراكة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن المراد بالعقود عهود الله التى عهد بها إلى عباده : أى ما أحل وما حرم وما فرض وما حُدّ فى القرآن كله ، لا غدر فيها ولا نكث .

وقال الراغب : العقود ثلاثة أضرب : عقد بين الله وبين العبد ، وعقد بينه وبين غيره من البشر ، وكل واحد منها إما أن يوجه العقل الذى أودعه الله فى الإنسان ويتوصل إليه ببديهة العقل ، أو بأدنى نظر ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ﴾ ﴿٣﴾ وإما أن يوجه الشرع ، وهو ما دلنا عليه كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

وأساس العقود فى الإسلام هو هذه الجملة ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ أى إنه يجب على كل مؤمن أن يفى بما عقده وارتبط به من قول أو فعل ، كما أمر الله ، مالم يحرم حلالا أو يحلل حراما ، كالعقد على أكل شئ من أموال الناس بالباطل كالربا والميسر (القمار) والرشوة ونحو ذلك .

ثم شرع يفصل الأحكام التى أمر بالإيفاء بها ، وبدأ بما يتعلق بضروريات معاشهم فقال : (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، والمراد بالأنعام : الضأن والمعز والإبل والبقر ، وقد استدل ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتا فى بطن أمه إذا ذبحت : عن أبى سعيد : قال « قلنا يارسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة فى بطنها الجنين أنلقيه أم نأكله ؟ فقال : كلوه إن شئتم ، فإن ذكاته ذكاة أمه » قال الترمذى حديث حسن وقد ألحق بهيمة الأنعام الظباء وبقر الوحش ، والإضافة فى قوله تعالى ﴿ بهيمة الأنعام ﴾ إضافة تفيد البيان أى بهيمة هى الأنعام ، كما فى قوله تعالى ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ ﴿٤﴾ أى آية هى الليل ، وآية هى النهار .

(٣) جزء من الآية رقم ١٧٣ من سورة الأعراف

(٤) جزء من الآية رقم ١٢ من سورة الاسراء

(١) جزء من الآية رقم ٩١ من سورة النحل

(٢) جزء من الآية رقم ٣٤ من سورة الاسراء

قوله تعالى : ﴿إِلا مَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أى ما سيأتى بيانه فى قوله جلّ ذكره : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمَنْخَنَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذَبَحَ عَلَى النَّصَبِ﴾ فهذه المذكورات من الأنعام ماعدا الخنزير وإنما حُرِّمَتْ لعارض طرأ عليها كالموت بدون تذكية .

قوله تعالى : « غير محلى الصيد وأنتم حرم » غير هنا منصوب على الحال : أى حالة كونكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ، كالظباء وبقر الوحش وحمار الوحش ، وذلك كما فى قوله جلّ ذكره ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا﴾^(١) فالله تعالى إذا كان قد أباح صيد الظباء وبقر الوحش وغيرهما من الحيوانات التى لا يمكن الوصول إليها إلا بالصيد ، فإنه تعالى حرّم على المحرمين أن يصطادوا مادامو حرمًا ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿إِنِ اللَّهُ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ المقصود بالحكم هنا القضاء ، فهو سبحانه الذى يقضى بحكمة هذا وحل ذاك كما يشاء سبحانه ، ومشيئته منزهة عن العبث ، لأنه الحكيم المريد العليم جلّت حكمته ووسعت رحمته وعظمت رأفته ، وليس لغيره أن يحكم على الأشياء بالحل والحرمه لهوى فى نفسه ، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ . وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(٣) . وقال الله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤) .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ : المقصود بشعائر الله هنا مناسك الحج والعمرة وقيل سائر فرائض دينه من حلال وحرام وحدود حدها لكم . ومعنى لا تحلوها : أى لا تخالفوا أحكام الله فيها ، والمقصود بالشهر الحرام : الأشهر الأربعة : وهى ثلاثة سرد^(٥) وواحد فرد وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر بين جمادى وشعبان .

وقد حرّم الله القتال فى هذه الأشهر إلا إذا اعتدى على المسلمين فيها : قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾^(٦) . وقال جلّ ذكره : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامِ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ . فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾^(٧) . وقال تبارك اسمه : ﴿إِنْ عُدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٨) .

والمقصود بالهدى : ما يهْدَى من الأنعام إلى البيت الحرام للتوسعة على أهل هذا المكان ، فلا تمنعوه

- | | | | |
|-----|-------------------------------------|-----|-------------------------------------|
| (١) | جزء من الآية رقم ٩٦ من سورة المائدة | (٥) | سرد أى متتالية |
| (٢) | جزء من الآية رقم ٩٥ من سورة المائدة | (٦) | جزء من الآية رقم ٢١٧ من سورة البقرة |
| (٣) | الآيتان رقم ٦٠، ٥٩ من سورة يونس | (٧) | جزء من الآية رقم ١٩٤ من سورة البقرة |
| (٤) | الآيتان رقم ١١٦ ، ١١٧ من سورة النحل | (٨) | جزء من الآية رقم ٣٦ من سورة التوبة |

من بلوغه محله من بيت الله بأخذه غصبا وذبحه أو سرقة أو حبسه عند من أخذه ، والمقصود بالقلائد : معلق فيه قلادة تميزه عن غيره وتفيد أن هذا مُهدى إلى بيت الله الحرام ، فلا تمنعوا الهدى مقلداً أو غير مقلد .

قوله تعالى : ﴿ ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً ﴾ نزل هذا النص في الحطيم بن هند البكرى^(١) : كان قد أغار على سرح المدينة ، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت ، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا في طريقه إلى البيت ، فأنزل الله عز وجل ﴿ ولا آمين البيت الحرام ﴾ ، والمقصود بالآمين القاصدين البيت في الحج أو العمرة ، وقد يُراد بالفضل التجارة كما في قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾^(٢) والمقصود بالرضوان ما يترضون به الله تعالى بأداء الحج والعمرة والإهداء إلى الحرام .

قوله تعالى : ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ أى إذا فرغتم من الإحرام وتحللتم فقد أبيع لكم ما كان محرماً من الصيد فاصطادوا إن شئتم .

قوله تعالى : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ﴾ أى لا يحملنكم شدة بغضكم لقوم سبق أن صدوكم عن المسجد الحرام - كما حدث يوم الحديبية - لا يحملنكم ذلك على الاعتداء عليهم ، فالإسلام دين العدل لا يتصيد الأخطاء ، ولا يظلم من أجل البغض والشنآن ، وليس للهوى في حكمة نصيب :

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى . واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾^(٣)

قوله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ البر جماع الخير وشعبه كثيرة متعددة ، جاء بيانها في قوله تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾^(٤)

وقد جاء فى الحديث الشريف « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس » رواه مسلم وأصحاب السنن .

(١) اسمه فى الجامع لأحكام القرآن « شريح بن ضبيعة البكرى أو الكندى ، وفيه أن جند رسول الله ﷺ أخذوه عام غمرة القطنية وقد

جاء مقتوماً ، وقد قتل الحطيم فرتداً فى ردة الإمامة ، وكان الهدى الذى ساقه للكعبة مما سبق أن سرقه من سرح المسلمين حول المدينة

(٢) جزء من الآية رقم ١٩٨/ من سورة البقرة

(٣) هى الآية رقم ٩/ من سورة المائدة وسوف يأتى تفسيرها إن شاء الله

(٤) جزء من الآية رقم ١٧٧/ من سورة البقرة

وروى أحمد والدارمي عن وابصة بن معبد الجهني أنه قال : « أتيت رسول الله ﷺ فقال : « جئت تسأل عن البر والإثم ؟ قلت نعم . وكان قد جاء لأجل ذلك ، فأخبره النبي ﷺ بما في نفسه وأجابه فقال : « استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

ومن باب التعاون على البر والتقوى قوله ﷺ : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » قيل يا رسول الله هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره إذا كان ظالما ؟ قال : تحجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره » انفرد به البخاري .

وقوله ﷺ : « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » رواه الترمذي وابن ماجه .

وقوله ﷺ « الدال على الخير كفاعله » رواه أحمد .

وقوله ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » رواه البخاري - وقال أيضا ﷺ : « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام » . رواه الطبراني - قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أى احذروا عقوبته وخافوه ، فالتقوى هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، وهو سبحانه شديد العقاب على من خالفه ، واسع الرحمة والمغفرة لمن أطاعه والتزم شرعه .

أحكام تتعلق بالمحرمات

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيسَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِزْيَرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّجَةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَفْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾

التفسير

جاءت هذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا يَتْلِي عَلَيْكُمْ ﴾ الذى جاء استثناء من قوله جل شأنه : ﴿ أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ ﴾ وقد بين الله تعالى في تلك الآية أحكام التحريم في

عشرة أشياء نبين معناها فيما يلي :

﴿ الميتة ﴾ : وهى ما ماتت وحدها بدون فعل فاعل ، وفى الشرع هى التى لم تُذَكَّ ذكاة شرعية ، وقد حرمت لما فيها من الضرر إذ الغالب أنها ماتت من مرض ، وبقي فيها ميكروبه وجراثيمه التى تعيش فى الدم بعد الوفاة ، أما إذا ذكيت فإن الدم الذى يحمل الجراثيم أو أغلبها ينزل منها ، على أنها^(١) مما تعافها النفوس الطيبة وتأنف من أكلها الطباع السليمة .

﴿ الدم ﴾ : والمراد به الدم المسفوح - لا المتجمد كالكبد والطحال - إذ هو مباءة للجراثيم الفتاكة ، على أنه مستقذر عند الطبع السليم ، ومما يعسر هضمه ، وهو من فضلات الجسم الضارة كالبراز ، فدل ذلك على أنه لايجل أكله أبدا .

﴿ ولحم الخنزير ﴾ : وهو ثلاثة الأثافي ، والمراد لحمه وعظمه ودهنه ، إذ هو حيوان قدر لا يأكل إلا القاذورات والمواد العفنة ، وقد أثبت الطب الحديث أن أكله يولد الدودة الشريطية والدودة الوحيدة والحلزونية ، على أنه عسير الهضم ، ضار بالمعدة ضرراً بالغاً ، ولولا ما يستعين به بعض الغربيين من الأدوية ما أكلوه ، على أن أكثر الدول حرمت ذبحه ، وهل تقبل النفوس الطيبة على أكل حيوان كهذا ؟

والإسلام حينما حرم الكلب والخنزير لم يكن متعدياً ولا متجنياً ، بل لما فيهما من الضرر والخطورة ، وإنما ينظر الشرع للجماهير والشعب ، لا لبعض أفراد يُعَنُّون بكلابهم مثلاً ، فلا يطعموهم الإشهى اللحم !!

﴿ ما أهل لغير الله به ﴾ : والإهلال رفع الصوت ، وقد كانوا يرفعون صوتهم عند الذبح فى الجاهلية بقولهم : باسم اللات والعزى الخ ، فمادبح وقد ذكر عليه اسم غير الله كان حراماً أكله ، إذ أكله مشاركة لأهله فى عبادة غير الله ، وهذا مما يجب إنكاره لا المشاركة فيه .

﴿ المنخنقة ﴾ : هى ما ماتت خنقاً بأى شكل كان ، وهى نوع من الميتة التى لم تذك ذكاة شرعية ، وإنما خصها القرآن بالذكر مع اندراجها فى الميتة لئلا يظن أنها ما ماتت حتف أنفها بل بفعل فاعل فتحل ، ولكن الشرع شرط الذكاة ليتأكد الإنسان مما يأكل ويثق من صحة ما يتغذى به .

﴿ الموقوذة ﴾ هى التى ماتت بعضاً أو بحجر بلا ذكاة شرعية ، وكانوا يأكلونها فى الجاهلية ، والوقد يحرم فى الإسلام لأنه تعذيب للحيوان شديد ، وليست معه ذكاة ومن هنا حرمت .

ويدخل فى الموقوذة مارمى بعضاً أو حجر ليس له حد ، وما رمى بالبندق (وهو كرة من الطين تحفف ويرمى بها بعد ييسها)^(٢) وكذا الحصاة ، فإن هذا كله لايفقأ عينا ولاينكى عدوا ولا يحرز صيدا وليس سببا للقتل غالبا ، أما الرصاص المستعمل الآن فى سلاح الصيد فجائز شرعا على الصحيح^(٣) .

(١) أى الميتة

(٢) يرمى بهذه الكور أو الحصى الصلب بمقلاع أو نبل ، فإن أدرك الطير أو الحيوان وفيه رمق فذكى أى ذبح وهو على حياة حل أكله

(٣) وسبب الجواز أنه يسيل الدم فصار فى معنى الذكاة

﴿ المتردية ﴾ : هى ماسقطت من مكان عال كجبل أو هوت فى بئر فماتت بسبب ذلك وهى كالميتة لا يحل أكلها بدون تذكية ، ويجوز عقرها فى أى مكان^(١) للضرورة فتحل .

﴿ النطيحة ﴾ : وهى مانطحتها بهيمة أخرى فماتت وهى حرام كالميتة .

﴿ ما أكل السبع ﴾ : وهى ما قتلت بافتراس حيوان كالسبع والذئب والثمر مثلاً والمراد مابقى منها بعد السبع لا ما أكلت كلها ، وكانوا فى الجاهلية يأكلون مابقى من السباع والوحوش .

﴿ إلا ما ذكيت ﴾ : أى إلا ما أدركتموه حياً مما سبق فذكيتموه : من المنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، وما أكل السبع جزءاً منه ، وما أهل لغير الله به ، فإذا كانت فيه حياة ولو بسيطة بأن يطرف عيناً أو يضرب برجل أو يد ثم ذكيتموه ذكاة شرعية صار حلالاً ، وإلا فلا أما الميتة والدم ولحم الخنزير فلا تحل أصلاً ذكيت أم لا .

﴿ ما ذبح على النصب ﴾ : وهو آخر المحرمات العشر والنصب حجارة حول الكعبة قبل كان عددها ثلاثمائة وستين حجراً وكان أهل الجاهلية يذبحون عليها تقرباً للأصنام ، وهو نوع مما ذكر عليه اسم غير الله تعالى فحرم أكله لهذا - وقد أضاف القرآن الكريم إلى محرمات الطعام التى كان الجاهليون يستحلونها خرافة أخرى كانوا يعملونها وهى :

﴿ الاستقسام بالأزلام ﴾ : أى معرفة ماقسم له بواسطة الأزلام ، وكانت ثلاثة أنواع فى الجاهلية :

﴿ نوع ﴾ : كان مع الشخص وعدده ثلاثة مكتوب على واحد افعل والثانى لا تفعل والثالث غفل ..
﴿ النوع الثانى ﴾ : سبعة قداح واحد قذح وكانت عند هبل فى جوف الكعبة مكتوب عليها ما يدور بين الناس من النوازل .

﴿ النوع الثالث ﴾ : هو قداح الميسر وعددها عشرة : سبعة منها فيها حظوظ وثلاثة غفل^(٢) .. إلى آخر ما هو معروف .

أى وحرم عليكم معرفة ماقسم لكم بالأزلام ، والحكمة فى هذا أنه من الخرافات والأوهام التى تعوق نشاط الفرد والأمة ، ومدعاة للكسل والسير على غير بصيرة وهدى ، على أنها تجعل الناس العوبة فى يد الكهان^(٣) ، والإسلام برىء من هذا كله ..

وفى هذه الأيام شاعت معرفة الحظ والاستقسام بأوراق « الكوتشينة » و (الودع) و (الفنجان) وهذا كله منكر شرعاً لا يليق بعقل المسلم .

على أن معرفة الحظ والنصيب بواسطة المسبحة أو المصحف شئ لا يعرفه الشرع والقرآن

(١) وذلك إذا ادركت وفيها رمق من حياة

(٢) أى فارغة ليس فيها شئ

(٣) وهم الذين كانوا يوكل إليهم الاستقسام بالأزلام وكانت لهم حيل حتى يحصلوا على أعظم أجر

والاستخارة الواردة شرعا أن يصلى الإنسان ركعتين نفلا للاستخارة ، ثم يدعو الله بدعاء بشرح به صدره لما يريد إن كان خيرا له في دينه ودنياه ، وللنبي ﷺ دعاء في الاستخارة يقول فيه : « اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسمى حاجته) خير لى في دينى ودنياى وعاقبة أمرى فاقدره لى ويسره لى ثم رضنى به ، وإن كنت تعلم أنه شر لى في دينى ودنياى وعاقبة أمرى فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان » .

قوله تعالى : ﴿ ذلکم فسق ﴾ أى أن المذكورات التى حرّمها الله تعالى فسق وخروج عن طاعة الله ، لمن خالف أمر الله فيها .

وقد ذكر الله تعالى في ختام هذه الآية أربع بشریات : أولاها : ﴿ اليوم بیس الذین کفروا من دینکم فلا تخشوهم واخشون ﴾ ، وثانيها ﴿ اليوم أكملت لكم دینکم ﴾ وثالثها ﴿ وأتممت علیکم نعمتى ﴾ ورابعها : ﴿ رضیت لكم الإسلام دینا ﴾ (١) قال ﷺ « إن الشیطان قد بیس أن یعبده المصلون فی جزيرة العرب ، ولكن بالتحریش بینهم » وإذا كان الله تعالى قد أكمل دینہ فلیس دین الله فی حاجة إلى زیادة أبدا ، وإذا كان قد أتم نعمته فنعمة الله لاتنقضی أبدا ، وإذا كان قد رضی لنا الإسلام دینا فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا .

قوله تعالى : ﴿ فمن اضطر فی مخصصة غیر متجانف لإثم فإن الله غفور رحیم ﴾ هذا استثناء مما سبق ذكره من المحرمات فللضرورة أحكامها ، إذ أن الضرورات تبيح المحظورات ، فمن أصابته مخصصة وجوع يكاد يعصف به ولم يكن مائلا إلى إثم أو معصية ، فقد أبيع له أن يأكل بقدر ما يرد جوعته ويروى غلته ولا إثم عليه لأنه اندرج تحت مظلة المغفرة الإلهية والرحمة الربانية ، فما أكرمك من إله وما أعظمك من رب رحيم أرف بعباده من الأم بولدها .

قال ﷺ : « إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تؤتى معصيته » لفظ ابن حبان ، وفي لفظ لأحمد « من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة »

(١) روى الأئمة عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرأونها لو علينا انزلت معشر يهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال : وأى آية ؟ قال : اليوم أكملت لكم دینکم وأتممت علیکم نعمتى ورضیت لكم الإسلام دینا « فقال عمر : إني لأعلم اليوم الذى أنزلت فيه ، والمكان الذى أنزلت فيه ، نزلت على رسول الله ﷺ بعرفة في يوم الجمعة - لفظ مسلم ، وعند السائى ليلة الجمعة .

وروى أنها لما نزلت في يوم الحج الأكبر وقرأها رسول الله ﷺ : بكى عمر ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك » أبكاني أنا كنا في زيارة من دیننا فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص ، فقال له النبي ﷺ : « صدقت » وروى مجاهد أن هذه الآية نزلت يوم فتح مكة والأول هو الأصح ، وقد نزلت والنبي ﷺ واقف بعرفة بعد صلاة العصر على ناقه العضباء ، فكاد عضد الناقة ينقذ - ينكسر - من ثقل الوحي فبركت

ماذا أحل لهم

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ يَعْلَمُونَهَا مِمَّا
 عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿١٠٦﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ
 وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ
 أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ
 فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠٧﴾

المفردات : ﴿ الطيب ﴾ : ضد الخبيث . ﴿ والجوارح ﴾ : واحدها جارحة ، وهى
 الصائدة من الكلاب والفهود والطيور ، من الجرح بمعنى الكسب قال تعالى ﴿ ويعلم ما جرحتم
 بالنهار ﴾ ^(١) أى ما كسبتم ، و﴿ مكليين ﴾ : من التكليل وهو تعليم الكلاب وإضراؤها بالصيد ، ثم
 استعمل فى تعليم الجوارح مطلقا . ﴿ المحصنات ﴾ : هنا الحرائر وقيل العفيفات عن الزنا .
 ﴿ والأجور ﴾ : المهور ، والمراد بالمحصنين الأعفاء عن الزنا . ﴿ مسافحين ﴾ : مجاهرين بالزنا .
 ﴿ متخذى أخدان ﴾ : مُسرِّين به ، والخِذْن : الصديق يقع على الذكر والأنثى ^(٢) . ﴿ حبط عمله ﴾ :
 بطل ثواب عمله .

جاء فى سبب نزول هذه الآية مارواه ابن أبى حاتم بإسناده إلى عدى بن حاتم وزيد بن مهلهل
 الطائيين : أنهما سألا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها ، فنزلت
 ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾ أى الذبائح الحلال الطيبة لهم .

وقال تعالى ﴿ مما علمتم من الجوارح مكليين ﴾ أى كما أحل الله تعالى الطيبات وهى كلمة جامعة
 يندرج تحتها كل ما تستطيه النفوس النظيفة ، فإنه سبحانه أحل لنا ما تصطاده الجوارح من الكلاب
 والفهود وغير ذلك مما نسلطه على الحيوان فيصطاده ، وللصيد فى الشريعة الغراء أحكام نجملها فيما يلى :

تعريف الصيد :

الصيد هو اقتناص الحيوان المتوحش بالطبع الذى لا يقدر عليه حكمه : وهو مباح أباحه الله
 سبحانه بقوله ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ ^(٣) والصيد مباح كله ما عدا صيد الحرم . وصيد البحر جائز فى

(٣) جزء من الآية الثالثة التى سبق شرحها من هذه السورة

(١) جزء من الآية رقم ٦٠/ من سورة الأنعام

(٢) أى يطلق على الذكر والأنثى

كل حال ، وكذلك صيد البر إلا في حالة الإحرام يقول الله تعالى : ﴿ أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْجَارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرَمًا ﴾^(١).

الصيد الحرام :

والصيد المباح هو الصيد الذى يقصد به التذكية ، فإن لم يقصد به التذكية ، فإنه يكون حراما لأنه من باب الإفساد وإتلاف الحيوان لغير منفعة .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الحيوان إلا لما أكلة : روى النسائي وابن حبان أن النبي ﷺ قال : « لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا »^(٢). ومر صلوات الله وسلامه عليه على طائر قد اتخذته بعض الناس هدفا يصبون إليه ضرباتهم فقال : « لعن الله من فعل هذا »

شروط الصائد :

ويشترط في الصائد الذى يحل أكل صيده ما يشترط في الذابح بأن يكون مسلما أو كتابيا فصيد اليهودى والنصرانى كذبيحته يؤكل .

الصيد بالسلاح الجارح وبالحيوان :

والصيد قد يكون بالسلاح الجارح كالرماح والسيوف والسهام ونحوها ، وفي هذا يقول الله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بَشْيَاءَ مِنْ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾^(٣) وقد يكون بواسطة الحيوان ، وفيه يقول الله سبحانه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيْبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ فَمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَاكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

وعن أبى ثعلبة الخشنى قال : قلت يا رسول الله إنا بأرض صيد . أصيد بقوسى وبكلبى المعلم وبكلبى الذى ليس بمعلم فما يصلح لى ؟ فقال : « ماصدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكل ، وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل » ورواه البخارى ومسلم .

شروط الصيد بالجوارح :

والصيد بالجوارح مثل الصقر والبازى والفهد والكلب وغيرها مما يقبل التعليم جائز بالشروط الآتية :

١ - تعليم الحيوانات الصيد ، ويعرف ذلك بأن يأتمر إذا أمر ، وينزجر إذا زجر .

(١) جزء من الآية رقم ٩٦ من هذه السورة « المائدة »

(٢) أى هدفا توجهون إليه وسائل الصيد دون طلب الاستفادة منه

(٣) هى صدر الآية رقم ٩٤ من هذه السورة - المائدة .

٢ - أن يمسك على صاحبه بترك الأكل من الصيد ، فإن أكل فقد أمسك على نفسه فلا يحل صيده ، ففي حديث عدى بن حاتم قال الرسول ﷺ له : إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله عليها فكل مما أمسكن عليك ، وإن أكل الكلب فلا تأكل فإنى أخاف أن يكون مما أمسك على نفسه .

٣ - أن يرسله ويذكر اسم الله عليه : بالنسبة للتسمية قال مالك : كل ماذبح ولم يذكر عليه اسم الله فهو حرام ، سواء ترك ذلك الذكر عمداً أو نسياناً وهو قول ابن سيرين وطائفة من المتكلمين ، وقال أبو حنيفة : إن ترك الذكر عمداً حرم ، وإن ترك نسياناً حل .

وقال الشافعى : يحل متروك التسمية سواء كان عمداً أم خطأ إذا كان الذابح أهلاً للذبح : عن عائشة أن قوماً قالوا : يا رسول الله إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ قال : سموا عليه أنتم وكلوا ، قالت « وكانوا حديثى عهد بالكفر » أخرجه البخارى وغيره .

أما قصد إرسال الحيوان فإنه شرط من شروط لصيد فإذا انبعث الحيوان الجارح من تلقاء نفسه من غير إرسال ولا إغراء من الصائد فلا يجوز صيده ، ولا يحل أكله عند مالك والشافعى وأبى ثور وأصحاب الرأى ، لأنه صاد لنفسه من غير إرسال وأمسك عليها ، ولا صنع للصائد فيه ، فلا ينسب إليه ، لأنه لا يصدق عليه الحديث المتقدم : « إذا أرسلت كلابك المعلمة .. الخ » فمفهوم الشرط أن غير المرسل لا يكون كذلك وقال عطاء والأوزاعى يؤكل صيده إذا كان أخرج للصيد وكان معلماً .

قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله إن الله سريع الحساب ﴾ أى أطيعوا أمره واجتنبوا نهيه فإنه تعالى محاسبكم على أفعالكم فى الدنيا والآخرة ، واعلموا أنكم غدا بين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

قوله تعالى : ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات ﴾ : أى على سبيل التفصيل فقد كانت حلالاً من قبل على سبيل الإجمال . ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ﴾ المقصود بالطعام هنا الذبائح : فللمسلم أن يأكل من ذبيحة اليهودى أو النصرانى ، وكما أباح الله تعالى للمؤمن أن يتزوج بالحرائر من المؤمنات فقد أباح له أن يتزوج بالحرائر من أهل الكتاب ، وأن يؤتيهن مهورهن مبتغياً بذلك الإحصان والعفة ، دون سفاح أو مخادعة : قال تعالى : ﴿ والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴾ فمن جحد هذه الأحكام الإيمانية فقد حبط عمله وضاع تعبهُ وضلَّ سعيه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآيات الله يظلمون ، قال تعالى : ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ .

أحكام تتعلق بالصلاة والطهارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا

بِرِّءُ وِسْكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَايِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧﴾ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٨﴾

المفردات : ﴿ وجوهكم ﴾ : جمع وجه وهو ما به تقع المواجهة وحده طولاً ما بين منبت شعر الرأس إلى منتهى اللحين ، وعرضاً ما بين الأذنين . ﴿ المرافق ﴾ : جمع مرفق وهو أعلى الذراع وأسفل العضد . ﴿ الكعبين ﴾ : العظمان الناتئان عند اتصال الساق بالقدم من الجانبين ﴿ جنباً ﴾ : أى أصابتكم جنابة بمجامعة النساء وإنزال المنى .

التفسير

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى عهوده الخاصة بالحلال والحرام في الطعام والنكاح أخذ يبين ما يقتضيه هذا من الشكر لله والصلاة ، ومفتاحها الوضوء والغسل والتيمم ، وختم الآية ببيان الحكمة في الطهارة وتذكيرنا بالعهود والمواثيق التي التزمناها

روى عن النبي ﷺ : « مفتاح الجنة الصلاة ، ومفتاح الصلاة الطهور » .

فرائض الوضوء :

إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، واغسلوا أيديكم إلى المرافق ، فالمرافق تغسل من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وامسحوا برءوسكم « امسحوا ولو شعرة واحدة عند الشافعي رضي الله عنه ، وربع الرأس عند الإمام الأعظم أى حنيفة النعمان ، وعلى كل الرأس عند مالك للاحتياط ، وقد فعل النبي ﷺ هذا كله ، والآية تحتل كل هذا إذا لُها في قوله تعالى قد تكون للإصاق أو للتبعض أو زائدة صلة ، ولا تنس أن خلافهم رحمة . ﴿ وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ أى واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين وهما داخلان كالمرفين

ومن فرائض الوضوء النية عند الشافعي واستدل بقوله تعالى : ﴿ إذا قمتم ﴾ وبحديث « إنما الأعمال بالنيات » والترتيب كذلك لقوله ﷺ : « ابدعوا بما بدأ الله به » وتوسط مسح الرأس بين غسل اليدين والرجلين يدل على الترتيب ، وعلى ذلك فتكون فروض الوضوء : النية ، وغسل الوجه ، وغسل اليدين ، ومسح بعض الرأس وغسل الرجلين والترتيب ، وله سنن كثيرة نذكرها فيما يلي :

سنن الوضوء

١ - التسمية في أوله :

ورد في التسمية للوضوء أحاديث ضعيفة ، لكن مجموعها يزيد لها قوة تدل على أن لها أصلاً ، وهي بعد ذلك أمر حسن في نفسه ، ومشروع في الجملة .

٢ - السواك :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء » . رواه مالك والشافعي والبيهقي وعن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » رواه أحمد والشافعي والنسائي والترمذي ، ويسنُّ لمن لا أسنان له أن يستاك بإصبعه ، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله الرجل يذهب فوه أيستاك ؟ قال : نعم - قلت : كيف يصنع ؟ قال : « يدخل إصبعه في فيه » رواه الطبراني .

٣ - غسل الكفين ثلاثاً في أول الوضوء :

لحديث أوس ابن أوس الثقفي رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ توضع فاستوكف ثلاثاً (أي غسل كفيه) رواه أحمد والنسائي ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في إناء حتى يغسلها ثلاثاً ، فإنه لا يدرى أين باتت يده » رواه الجماعة .

٤ - المضمضة ثلاثاً :

لحديث لقيط بن صبره رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا توضأت فمضمض » رواه داود البيهقي .

٥ - الاستنشاق والاستنثار ثلاثاً :

لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه ماء ثم ليستنثر » رواه الشيخان وأبو داود .

٦ - تخليل اللحية :

لحديث عثمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يخلل لحيته « رواه ابن ماجه والترمذي وصححه ، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفا من ماء فأدخله تحت عنقه فخلل به ، وقال : « هكذا أمرني ربي عز وجل » رواه أبو داود والبيهقي

٧ - تخليل الأصابع :

لحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إذا توضأت فخلل أصابع يديك

ورجليك» رواه أحمد والترمذى ، وعن المستورد بن شداد رضى الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ يخلل أصابع رجله بخنصره » رواه الخمسة إلا أحمد .

٨ - تثليث الغسل :

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الوضوء فأراه ثلاثاً ثلاثاً ، وقال : « هذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم » رواه أحمد ومسلم والترمذى .

٩ - والقيام :

أى البدء بغسل اليمين قبل غسل اليسار من اليدين والرجلين ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يحب القيام فى تنعله وترجله وطهوره وفى شأنه كله « متفق عليه ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا لبستم وإذا توضأتم فابدءوا بأيمانكم » رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى .

١٠ - الدلك :

وهو إمرار اليد على العضو مع الماء أو بعده ، عن عبد الله بن زيد رضى الله عنه : أن النبى ﷺ أتى بثلاث مَدَّ^(١) فتوضأ فجعل يدلك ذراعيه « رواه ابن خزيمة وعنه رضى الله عنه : أن النبى ﷺ توضأ فجعل يقول هكذا يدلك » رواه أبو داود .

١١ - الموالاة :

أى تتابع غسل الأعضاء بعضها إثر بعض بألا يقطع المتوضئ وضوءه بعمل أجنبى يعدُّ فى العرف انصرافاً عنه وعلى هذا مضت السنة .

١٢ - مسح الأذنين :

عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ مسح فى وضوئه رأسه وأذنيه ظاهرهما وباطنهما وأدخل أصبعيه فى صماخى أذنيه « رواه أبو داود .

١٣ - إطالة الغرة والتحجيل :

أما إطالة التحجيل فبأن يغسل ما فوق المرفقين والكعبين ، لحديث أبى هريرة عن النبى ﷺ : « إن أمتى يأتون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء » قال أبو هريرة : فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل . رواه أحمد والشيخان .

(١) المَدَّ مكيال كانوا يكيلون به كاللتر والصاع خمسة أمداد أى خمس لترات

١٤ - الاقتصاد في الماء وإن كان الاغتراف من البحر :

لحديث أنس رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ يغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد ، ويتوضأ فقال : « ما هذا السرف يا سعد » ؟ فقال : وهل في الماء من سرف ؟ قال : « نعم وإن كنت على نهر جار » رواه أحمد وابن ماجه .

١٥ - الدعاء أثناءه :

في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ بوضوء فتوضأ ، فسمعتة يدعو يقول : « اللهم اغفر لي ذنبي ، ووسع لي في داري وبارك لي في رزقي » فقلت : يا نبي الله سمعتك تدعو بكذا وكذا قال : « وهل تركن من شيء ؟ » رواه النسائي .

١٦ - الدعاء بعده :

لحديث عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » رواه مسلم .

١٧ - صلاة ركعتين بعده :

لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لبلال : « يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام ، إني سمعت ذق نعليك بين يدي في الجنة ، قال : ما عملت عملا أرجى عندي من أني لم أتطهر طهورا في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي » متفق عليه .

نواقض الوضوء :

ما خرج من السبيلين ، النوم على غير هيئة المتمكن ، وتلاقى بشرتي ذكر وأنثى ، وعند الأحناف اللمس لا ينقض مطلقا ، وقيل بالشهوة ينقض فقط ، ومس فرج آدمي بباطن الكف ، وخالف بعضهم في هذا ، وليست نواقض الوضوء في الآية ولكن تعميها للفائدة ذكرت .

الغسل :

هو تعميم البدن بالماء الطاهر وله أسباب منها الجنابة وتكون بإيلاج الحشفة أو قدرها من الذكر في فرج ، أو بنزول المنى ، وكذا الولادة وكذا الحيض والنفاس^(١) ، فمن كان جنبا أو عنده سبب من أسباب الغسل المتقدمة وأراد الصلاة فعليه بالغسل مع النية « وإن كنتم جنبا فاطهروا » .

التيمم :

هو ضربتان للوجه واليدين بنية من تراب طاهر له غبار وقيل لا يشترط وله أسباب منها تعذر

(١) ولا صلاة على الحائض والنفساء حتى يرتفع الدم وعندئذ تغتسل لاستباحة قريضة الصلاة

استعمال المال لمرض أو سفر أو أحدث الشخص حدثاً أصغر أو حدثاً أكبر (كما تقدم في الغسل) أو طلب الماء فلم يجده أو جاء أحد منكم من الغائط ﴿أولا مستم النساء﴾ (جامعتم) فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا .

حكمة مشروعية الوضوء والغسل :

للوضوء والغسل فوائد أهمها :

١ - إن غسل البدن كله وغسل الأطراف يفيد صاحبه نشاطاً وهمة ، ويزيل ما يعرض للجسد من الفتور والاسترخاء ، بسبب الحدث أو غيره من الأعمال التي تؤثر تأثيره ، وبذا يقيم الصلاة على وجهها ويعطيها حقها من الخشوع ومراقبة الله تعالى .

إذ المشاهد أنه إذا بلغ الإنسان من هذه اللذة الجسمية غايتها بالوقاع أو الإنزال حصل تهيج عصبى كبير ، يعقبه فتور - بحسب سنة رد الفعل - ولا يعيد نشاطه إلا غسل البدن كله .

٢ - إن النظافة ركن الصحة البدنية فإن الوسخ والأقذار مجلبة للأمراض والأدواء الكثيرة ، ومن ثم نرى الأطباء يشددون في أيام الأوبئة والأمراض المعدية في المبالغة في النظافة ، وجدير بالمسلمين أن يكونوا أصح الناس أجساداً وأقلهم أمراضاً ، لأن دينهم مبنى على المبالغة في نظافة الأبدان والثياب والأمكنة ، فإذا هم فعلوا ما أوجبه الدين تنتفى الأسباب التي تولد جراثيم الأمراض عند الناس .

٣ - تكريم المسلم نفسه لدى نفسه وأهله وقومه الذين يعيش معهم ، إذ من كان نظيف البدن والثياب كان جديراً بحضور كل مجتمع ، ولقاء أشرف الناس وفضلائهم ، ومن كان وسخاً قدراً فإنه يكون محتقراً عند كرام الناس ، ولا يعدونه أهلاً لأن يحضر مجالسهم ويشعر في نفسه بالضعة والهوان .

ولأجل هذا ورد الأمر بالغسل والطيب ، ولبس الثياب النظيفة يوم الجمعة ، لأنه يوم يجتمع فيه الناس في المساجد لعبادة الله تعالى : روى مالك والشافعى وأحمد والبخارى ومسلم من طرق عدة : أن النبى ﷺ قال : « غسل الجمعة واجب على كل محتلم » أى بالغ مكلف .

وبعد أن بين سبحانه هذه الأحكام وذكر رفع الجرج الذى تم به الإنعام ذكرنا بنعمة التى أنعم بها علينا فقال :

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ أى وتذكروا أيها المؤمنون إذ كنتم كفاراً متباغضين ، فأصبحتم بهداية الدين إخواناً متحابين ، وتذكروا العهد الذى عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمداً ﷺ على السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، حين قلتم له سمعنا ما أمرتنا به ونهيئنا عنه ، وأطعناك فيه فلا نعصيك فى معروف ، وكل ما جئتنا به فهو معروف ، وكل نبى بعث فى قوم أخذ عليهم ميثاق الله بالسمع والطاعة ، وقبول الدعوة والدخول فى الدين ، يعد قبولاً لهذا العهد فعلياً أن نعد هذا التذكير خطايا لنا كما عده

السلف من الصحابة خطاباً لهم .

﴿ واتقوا الله ﴾ فلا تنقضوا عهده وتخالفوا ما أمركم به وما نهاكم عنه ، سواء أكان في هذه الآيات أم في غيرها .

﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ فلا يخفى عليه ما أضمره كل واحد ممن أخذ عليه الميثاق ، من نية الوفاء به أو عدم الوفاء وما تنطوي عليه السرائر من الإخلاص أو الرياء .

وقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى أن يكون بعباده رحيماً لا يكلفهم بهابنية عنتهم أو ما يشق عليهم ، ومن مظاهر تلك الرحمة أنه تعالى لما بين وجوب الطهارتين ، وكان المسلم لا بد له من طهارة الوضوء مرة أو أكثر من ذلك في اليوم ، ولا بد له من الغسل في كل أسبوع أو أكثر غالباً ، بين الرخصة في تركهما عند المشقة أو العجز ، لأن الدين يُسر لا حرج فيه ولا عنت ، فقال : ﴿ وإن كنتم مرضى ﴾ أى وإن كنتم مرضى مرضاً جليداً كالجدري والجرب وغيرهما كالقروح والجروح ، أو أى مرض يشق فيه استعمال الماء أو يضر .

﴿ أو على سفر ﴾ طال أو قصر مهما كان السبب فيه ، ومن شأن السفر أن يشق فيه الوضوء والغسل .

﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ﴾ : الغائط المكان المنخفض من الأرض ويراد به شرعاً قضاء الحاجة من بول وغائط ، أى أحدثتم الحدث الموجب للوضوء عند إرادة الصلاة ونحوها ، كالطواف ، ويسمى : الحدث الأصغر

﴿ أو لامستم النساء ﴾ المراد باللامسة المباشرة المشتركة بين الرجال والنساء والحدث الموجب للغسل يسمى : الحدث الأكبر .

﴿ فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴾ أى إذا كنتم على حال من هذه الأحوال الثلاث : المرض أو السفر أو فقد الماء عند الحاجة إليه لإحدى الطهارتين ، فاقصدوا تراباً أو مكاناً من وجه الأرض طاهراً لانتجاسة فاضربوا بأيديكم عليه وألصقوها بوجوهكم وأيديكم إلى الرسغين ، بحيث يصيبها أثر منه .

﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ أى ما يريد الله ليجعل عليكم فيما شرعه لكم في هذه الآية ، وفي غيرها ، حرجاً ما ، أى أدنى ضيق وأقل مشقة ، لأنه تعالى غنى عنكم رحيم بكم ، فلا يشرع لكم إلا ما فيه الخير والنفع لكم ﴿ ولكن يريد ليظهركم به ﴾ من الأقدار والردائل والمنكرات والعقائد الفاسدة ، فتكونوا أنظف الناس أبداناً وأزكاهم نفوساً وأصحهم أجساداً وأرقاهم أرواحاً .

﴿ وليتم نعمته عليكم ﴾ فيجمع لكم بين طهارة الأبدان وطهارة الأرواح ، والإنسان إنما هو روح وجسد ، والصلاة تطهر الروح وتزكى النفس فهى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتعود المصلى مراقبة ربه في السر والعلن وخشيته حين الإساءة ، والرجاء فيه لدى الإحسان والطهارة التى جعلها الله شرطاً

للدخول في الصلاة ومقدمة لها تطهيراً للبدن وتنشيطه فيسهل بذلك العمل من عبادة وغيرها ، فما أجل نعم الله على عبادة وما أجدر من هدى بهداه بدوام الشكر عليه ، ومن ثم ختم الآية الكريمة بقوله : ﴿لعلكم تشكرون﴾^(١) أى وليعدكم بذلك لدوام شكركم على تلك النعم الظاهرة والباطنة .

العدالة في الإسلام والتذكير بنعم الله

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هَوَاقِرَ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اٰن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠٤﴾

المفردات : ﴿قوامين﴾ : جمع قوام ، وهو المبالغ في القيام بالشئ والإتيان به مقوماً تاماً كاملاً ﴿بالقسط﴾ : بالعدل . ﴿يجرمكم﴾ : يحملنكم ويكسبنكم ﴿خير﴾ : الخبرة العلم الدقيق الذى يؤيده الاختبار ﴿يسطوا إليكم أيديهم﴾ : يقال بسط إليه لسانه إذا شتمه وبسط إليه يده إذا بطش به .

التفسير

بعد أن أمر سبحانه عباده بالوفاء بالعقود عامة ، ثم امتن عليهم بإباحة كثير من الطيبات لهم ، وتحريم ما يضرهم من الطعام إلا في حال الضرورة ، ثم ذكر حل طعام أهل الكتاب ونسائهم إذا كن محصنات ، ثم أمرهم بالطهارة مع رفع الحرج عنهم : ذكر هنا ما ينبغى أن يكون من معاملتهم سواهم ، سواء أكانوا أعداء أم أولياء ، ثم ذكر وعده لعباده الذين يعملون الصالحات ، ووعيده لمن كفر وكذب بالآيات ، وختمها بذكر المنة الشاملة والنعمة الكاملة ، إذ أنقذهم من أعدائهم وأظهرهم عليهم ، وكانوا على وشك الإيقاع بهم ، ولكن رحمهم وكبت أعداءهم وردهم صاغرين ، ليكون الشكر أتم والوفاء ألزم .

(١) من الفوائد التى يحسن بكل مسلم أن يعلمها أن محراب المسجد الجامع في قرطبة الأندلس - الفردوس المفقود - أن منشئ المحراب الذى اقيم سنة ٣٥٤ هـ على عهد الحكم السنتصر الأموى وبأمره : كتبوا آية الوضوء في داخل قهوف المحراب ، وكتبوا في قمته قوله تعالى من سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بنجل الله جميعاً ولا تفرقوا .. الخ الآيات

وما تزال هذه الآيات باقية إلى اليوم في هذا المحراب الجليل رغم زوال حكم المسلمين منذ أكثر من خمسة قرون وسبحان من له الدوام وقد كان هذا المسجد يسع عشرين ألف مصل

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ﴾ : أى ليكن من دأبكم وعاداتكم القيام بالحق فى أنفسكم بالإخلاص لله فى كل ماتعملونه من أمر دينكم وأمر دنياكم ، بأن تريدوا بعملكم الخير والتزام الحق ، بدون اعتداء على أحد ، وفى غيركم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله .

﴿ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ الشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به ، أو إظهاره بقوله بالحكم به أو الإقرار به لصاحبه ، وفى كل حال تكون بالعدل بلا محاباة لمشهود له ولا لمشهود عليه ، لأجل قرابة أو مال أو جاه ولا تركه لفقر أو مسكنة .

فالعدل هو ميزان الحقوق : إذ متى وقع الجور فى أمة لأى سبب زالت الثقة من الناس ، وانتشرت المقاصد وتقطعت روابط المجتمع ، فلا يلبث أن يسلط الله عليهم بعض عباده الذين هم أقرب منهم إلى العدل فيذيقوهم الوبال والنكال ، وتلك سنة الله فى حاضر الأمم وغايرها ولكن الناس لا يعتبرون .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ : أى ولا تحملنكم العداوة والبغضاء لقوم على عدم العدل فى أمرهم ، بالشهادة لهم بحقهم ، إذا كانوا أصحاب حق ، أو الحكم لهم بذلك ، فالؤمن يؤثر العدل على الجور والمحاباة ، ويجعله فوق الأهواء وحظوظ الأنفس ، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببهما ﴿ اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ هذه الجملة تؤكد للجملة السالفة للعناية بأمر العدل ، وأنه فريضة لا هداوة فيها ، لأنه أقرب لتقوى الله ، والبعد عن سخطه ، وتركه من أكبر المعاصى لما ينشأ عنه من المفاصد التى تقوض نظم المجتمعات ، وتقطع الروابط بين الأفراد ، وتجعل بأسهم بينهم شديدا .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى الأعمال التى يصلح بها أمر العباد فى أنفسهم وفى روابطهم الاجتماعية ، ومن أهمها العدل فيما بينهم ، وتقوى الله فى جميع أحوالهم . ثم بين سبحانه : ما وعدهم به بعد ، أن ذكره أولاً محملاً لتوجه النفس للسؤال عنه ، حتى إذا جاء تأكد فى النفس وتقرر هذا الوعد ، فقال :

﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ المغفرة الستر ، والإيمان والعمل الصالح يستران ويمحوان من النفس ما يكون فيها من سوء أثر الأعمال السالفة ، فيغلب عليها حب الحق والخير ، وتكون أهلاً للوصول إلى عالم القدس والطهر ، والأجر العظيم هو الجزاء المضاعف على الإيمان والعمل الصالح ، فضلاً من الله ورحمة من لدنه

قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ ﴿ الكفر ﴾ : هنا هو الكفر بالله ورسله ، لا فارق في ذلك بين كفر بالجميع وكفر بالبعض ، ﴿ وآيات الله قسماً ﴾ : آياته المنزلة على رسله ، وآياته التي أقامها في الأنفس والآفاق ، كالدلالة على وحدانيته وكأله وقدرته وإرادته ، وعلى صدق رسله فيما يبلغون عنه ، ﴿ الجحيم ﴾ : النار العظيمة كما قال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم ﴾ ^(١) .

أى أن هؤلاء الكفار المكذبين سيصلون العذاب في نار عظيمة أعدها الله لمن كفر وكذب بآياته ، لأن نفوسهم قد فسدت وسوء أعمالهم قد ران على قلوبهم ، فأصبحوا حتماً عمياً لا يبصرون ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم ﴾ .

روى من طرق عدة أن الآية نزلت في رجل من قبيلة محارب هم بقتل النبي ﷺ : أرسله قومه لذلك ، وكان بيده سيف وليس مع النبي ﷺ سلاح ، وكان منفرداً روى الحاكم من حديث جابر قال : « قال على رأس رسول الله ﷺ وقال : من يمنعك مني ؟ قال : « الله » فوقع السيف من يده ، فأخذه النبي ﷺ ، وقال : « من يمنعك » ؟ قال : كن خير آخذ ، قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » قال : أعاهدك إلا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فجاء إلى قومه وقال جئتكم من عند خير الناس » وفي رواية أخرى : « إن السيف الذى كان بيد الأعرابي كان سيف النبي ﷺ علقه في شجرة نام تحتها وقت الراحة ، فأخذه الرجل ، وجعل يهزه ، ويهم بقتل النبي ﷺ ، ثم سقط من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ وقال من يمنعك مني ؟ قال لا أحد ثم صاح رسول الله ﷺ بأصحابه فأخبرهم وأنى أن يعاقبه » .

وعلى هذا فالمراد : تذكيرهم بنعمة الله عليهم بدفع الشر والمكروه عن نبيهم ﷺ فإنه لو حصل ذلك لكان من المحن الكبرى التي تصيب المسلمين ، وقيل إن المراد تذكيرهم بما أنعم الله عليهم من قوة الاسلام ، وعظمة شوكة المسلمين ، فبعد أن كانوا أذلاء مغلوبين على أمرهم ، بدل الله الحال غير الحال ، وأصبحوا أعزة بعد الذلة ، وغالبين بعد أن كانوا مقهورين ، فهو سبحانه يذكر المسلمين بوقائع الاعتداء كلها سواء في ذلك حادثة المحاربي وأمثالها ، لأن حفظه لأولئك السلف ، هو حفظه لذلك الدين القويم ، فالنبي ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة وأصحابه هم الذين تلقوها عنه وأدوها لمن بعدهم قولاً وعملاً ومن فوائد هذا التذكير للمتأخر ترغيبه في التأسي بالسلف في القيام بما جاء من الدين من الحق والعدل والبر ومعنى قوله : « إذ هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم » أى شارفوا أن يمدوا أيديهم إليكم بصنوف البلاء ، من قتل ونهب ، فكف الله تعالى بلطفه ورحمته أيديهم عنكم فلم يستطيعوا تنفيذ ما هموا به .

﴿ واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أى واتقوا الله الذى أراكم قدرته على أعدائكم وقت ضعفكم وقوتهم ، وتوكلوا عليه وحده ، فقد أراكم عنايته بمن يكلون أمورهم إليه ، بعد مراعاة سننه والسير عليها في اتقاء كل ما يخشى ضره وتسوء غاقبته ، لا على أوليائكم وحلفائكم ، لأن الأولياء قد

تنقطع بهم إلا سباب ويحييون داعي اليأس إذ اشتد البأس ، والخلفاء قد يعذرون كما عذر بنو النضير وغيرهم ، ولكن المؤمن المتوكل على الله إذا هم أن ييأس تذكر أن الله وليه ، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء ، وهو الذي يجبر ولا يجار عليه ، فتجدد قوته ويفر منه اليأس فينصره الله ويخذل أعداءه ، كما حدث لأولئك الكلمة المتوكلين مع سيد المرسلين ، أيام ضعفهم وقتلهم وفقرهم وتآلب الناس كلهم عليهم .

الميثاق وكيف نقضوه

* وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

﴿ نقيبا ﴾ : نقيب القوم كبيرهم الذي يعنى بهم وبمصلحتهم ويعرف دخائلهم وهو الضامن لهم . ﴿ عززتموهم ﴾ : نصرتموهم ومنعتوهم من الأعداء . ﴿ لعناهم ﴾ : طردناهم من رحمتنا . ﴿ قاسية ﴾ : شديدة مغلقة لا تقبل خيراً . ﴿ خائنة ﴾ : أى خيانة أو نفس خائنة . ﴿ فأغرينا ﴾ : الزمناهم وألصقنا بهم .

بعد أن أمرنا الله تعالى بالوفاء بالسهود ، وذكرنا بموجب هذا الوفاء من إحلال الحلال وتحريم الحرام ، وتبصيرنا بالاستعداد للصلاة ، ثم ذكرنا بنعمة والمواثيق التى أخذها علينا ، أخذ يعرض لنا حال أهل الكتاب وقد نقضوا الميثاق ، وكيف كان جزاؤهم فى الدنيا والآخرة ، لعل المسلمين يتعظون بمن سبقهم من الأمم .

روى أنه لما نجا بنو إسرائيل من فرعون وصحبه ، أمرهم الله بالسير إلى بيت المقدس وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة ، وقال لهم : إني جعلتها لكم وطناً فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها وإني ناصركم وأمر نبيه موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبا ، يكون كفيلاً بتنفيذ ما أمروا به ، فاختر النقباء وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل ، وتكفل له النقباء ، وسار بهم فلما دنا من الأرض المقدسة بعث النقباء يتحسسون الأخبار ، فرأوا أجساماً قوية وشوكة وقوة فهابوهم ورجعوا ، وحدثوا قومهم بما رأوا ، وقد

كان موسى أمرهم ألا يخبروا أحداً بما يرون فنقضوا العهد . إلا نقيبين منهم . وهما اللذان قال فيهم القرآن : ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما أدخلوا عليهم الباب ﴾^(١) ولقد أخذ الله العهود والمواثيق على بنى إسرائيل بواسطة نبيهم موسى عليه السلام ليعملن بالتوراة وليقبلنها بمجد ونشاط ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾^(٢) ولازال هذا العهد موجوداً في التوراة وأمرناه أن يختار اثني عشر نقيبا منهم يتولون أمور الأسباط ويقومون على رعايتهم ، وبعثناهم يتجسسبون العدو ليقاتلوه ، وقال الله على لسان موسى : إني معكم وناصركم على عدوكم ، ومطلع عليكم ومجازيكم على أعمالكم ، ثم أعطاهم العهد الموثق : ﴿ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ﴾ وأديتموها كاملة تامة الأركان مستوفية الشروط وأنفقتم بعض المال الذي به تزكو نفوسكم وتطهر ، ﴿ وآمنتم برسلي ﴾ التي سترسل لكم بعد موسى عليه السلام ، كداود وسليمان ويحيى وزكريا ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، ونصرتهم ومنعتهم من الأعداء ، ووقفتم إلى جانبهم في السراء والضراء وأقرضتم الله قرضا حسنا طيبة به نفوسكم ، مع أنكم تقرضون غنياً له خزائن السموات والأرض قادراً كريماً يضاعف الحسنة إلى عشرة أمثالها بل إلى سبعمائة تالله إنكم إن فعلتم هذا :

إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسول ونصرتهم والقرض الحسن) لأكفرن عنكم سيئاتكم فإن الحسنات يذهبن السيئات وأنتم بذلك تستحقون الرضوان ودخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ومن يكفر بعد ذلك منكم وينقض الميثاق فقد ضل السبيل الواضح وأخطأ الطريق المستقيم الذي رسمه الله لعباده الأبرار .

وهؤلاء اليهود - كما وصفهم القرآن غير مرة - دأبهم العناد وديدنهم الكفر والعصيان ، وجزاؤهم الطرد والحرمان فبنقضهم الميثاق ، وكفرهم بالله ورسله ، وعدم نصرتهم لهم وعدم تعظيمهم وتوقيرهم ، استحقوا المقت والغضب واللعن والطرد من رحمة الله ، وكان نقضهم الميثاق مفسداً لفطرتهم مدنساً لنفوسهم ، فإن الذنب الذي يرتكبه الإنسان يترك نكبة سوداء في القلب ، فإذا كثرت المعاصي اسود القلب وأصبح في أكنة لا يصل إليه النور والهدى ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ وكذلك رأيناهم يقتلون الأنبياء بغير حق ، ويفترون على مريم البتول وابنها عيسى عليه السلام الذي أرسل لهم ليهديهم سواء السبيل ، بل حاولوا قتله وافتخروا بذلك ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ﴾^(٣) فبسبب هذا بعدوا عن رحمة الله وطرردوا منها شر طردة ، وأصبحت قلوبهم قاسية كالحجارة أو أشد قسوة ، وصاروا يحرفون الكلم عن مواضعه فيقدمون ويؤخرون ويغفون منه ويغيرون معناه ويدلون ﴿ ليا بالسنتهم وطعنا في الدين ﴾^(٤) . وقد نسوا حظاً من التوراة كبيراً .

وذلك أن موسى عليه السلام توفي والتوراة التي كتبها وأمر بحفظها - وكانت نسخة واحدة - قد فقدت باتفاق المؤرخين من اليهود والنصارى عند سبي البابليين لهم ، وإغارتهم عليهم ولم يكن عندهم

(١) جزء من الآية ٢٣ من هذه السورة - المائدة .
(٢) جزء من الآيتين رقم ٦٣ ، ٩٣ من سورة البقرة .
(٣) في أكنة « محجوب عن مصادر الهداية » وذلك قد حكاه الله إذ قال : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » الآية رقم ٢٥ من سورة الأنعام ، ٤٦ من سورة الاسراء .
(٤) جزء من الآية رقم ٤٦ من سورة النساء .
(٥) جزء من الآية ١٥٧ من سورة النساء .
(٦) جزء من الآية رقم ٤٦ من سورة النساء .

غيرها ، وما كانوا حفظوها^(١) كلها ، نعم هناك أسفار خمسة تنسب إلى موسى عليه السلام ، فيها أخبار عن موته وحياته ، وأنه لم يقم أحد بعده مثله ، كتبت بعد موته بزمان طويل قيل كتبها عزرا الكاهن معتمداً على ما بقى عند شيوخهم الذين بقوا بعد الأسر والقتل .

أفلا تراهم نسوا حظاً منها كبيراً ، وكما يقول القرآن في موضع آخر ﴿ أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾^(٢) ومن العلماء من يرى أن معنى الآية أنهم تركوا أخطأماً كثيرة من التوراة والله أعلم بكتابه .

ألا ترى هذا من أعظم المعجزات على صدق الرسول محمد ﷺ : حيث أخبرهم بدخائل نفوسهم ، وأما أنت يا محمد فلا تأس عليهم ، ولا تعجب من عنادهم ، فهاهم قد فعلوا كل شيء ، ولا تزال تطلع فيهم على خيانة بعد خيانة تصدر منهم على سبيل المبالغة ، إلا قليلاً منهم ممن آمن وحسن إيمانه وإذا كان الأمر كذلك فاعف عنهم واصفح إذا تابوا أو بذلوا الجزية إن الله يحب المحسنين .

ولقد أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب من النصارى ، فنسوا حظاً عظيماً مما ذكروا به ، ولذلك كان جزاؤهم أن الله ألزمهم العداوة والبغضاء ، حتى صارت صفة لازمة لهم لاصقة بهم إلى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعونه ، والمنصف للتاريخ يعرف أن المسيح توفى ولم يكن هناك إنجيل مكتوب ، وقد اضطهد اليهود أتباعه وتلاميذه وشردوهم حتى قتلوا أكثرهم ، فلما هدأت الأحوال ودخل قسطنطين الملك الديانة المسيحية أخذوا يكتبون الأنجيل ولذلك كانت كثيرة ومختلفة متباينة . وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون في الدنيا ويجازيهم عليه حتماً .

من قبائح اهل الكتاب

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

يا أهل الكتاب قد جاءكم محمد ﷺ مؤيداً بمعجزة القرآن المعجزة الباقية الخالدة ، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، هذا النبي قد بين لكم كثيراً من الأحكام والآيات التي كنتم تخفونها عن العوام ، فقد روى : أن هذه الآية نزلت حينما كنتموا حكم الزانى المحصن ، وأقسم النبي ﷺ على خبرهم^(٣) ابن صوريا وناشده حتى اعترف به وقد أنكروا غير ذلك من بشارة التوراة والإنجيل بالنبي ﷺ ووصفه ، فبينه القرآن لهم ، ولقد كان بيان القرآن لما كتموه سبباً في إسلام كثير من أبحارهم وعلمائهم . يبين الله بواسطة رسوله كثيراً مما تخفون ، ويعفو عن كثير مما لا تمس الحاجة إليه ، ولا تفيد الدعوة في شيء ، وهم يعلمون أنهم يخفون غير الذي أبداه الرسول .

(١) المراد حفظ آياتها عن ظهر قلب .

(٣) الخبر أحد علماء بنى اسرائيل .

(٢) جزء من الآية ٢٣ من سورة آل عمران .

﴿ يا أهل الكتاب ﴾ ﴿ قد جاءكم من الله نور ﴾ هو النبي محمد ﷺ أو هو القرآن ، أو هو دينه ، وجاءكم كذلك كتاب مبين بين الحقيقة ، وأظهر المكنون ، يهدي به الله من اتبع رضوانه طرق الخير التي تنجيه من العذاب الأليم ، ويخرج من اتبعه من ظلمات الشرك والخبث والخرافة والأوهام الباطلة ، إلى نور الإسلام وهدى القرآن الذي أنزله بعلمه ومشئته وتوفيقه ، ويهدي من اتبعه صراطا مستقيماً يوصل إلى خيري الدنيا والآخرة .

كفر النصارى ومناقشتهم

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ . وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

المفردات : ﴿ يملك ﴾ : يدفع ويمنعه وأصله الضبط والحفظ التام . ﴿ يهلك ﴾ : يميت ويعدم . ﴿ فترة ﴾ : سكون وهدوء من الرسل والمراد انقطاع الوحي وعدم ظهور الرسل مدة من الزمن .

قال أهل الحق من علماء العقيدة والتفسير :

بعد أن أقام الله سبحانه الحجة على أهل الكتاب عامة ، بين ما كفر به النصارى خاصة . قوله تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ قال أهل الحق . المسيحيون في هذا فرق ثلاث : الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت (أى إصلاح النصرانية) وهذا المذهب الأخير حدث من نحو أربعة قرون ، وصار هو المذهب السائد في أعظم الأمم مدنية وارتقاء كالولايات المتحدة وإنجلترا وألمانيا ، وقد أزال هذا المذهب كثيرا من التقاليد والخرافات النصرانية التي كانت قبله ، واستبدل بها تقاليد أخرى ، ومع كل هذا فهؤلاء المصلحون لم يستطيعوا أن يرجعوا المسيحية إلى التوحيد الصحيح - الذي هو دين المسيح ودين سائر الأنبياء - فلا يزالون يقولون بالتثليث ، ويعدون الموحد غير مسيحي ، كما تقول بذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان .

وجميع فرق النصارى في هذا العصر تقول : إن الله هو المسيح ابن مريم وإن المسيح ابن مريم هو

الله ، ولكن النصارى القدماء لم يكونوا متفقين على هذه العقيدة ، إذ كان بعضهم يفسر الآب والابن وروح القدس بأنها الوجود والعلم والحياة ، والقول بها لا ينافي توحيد الخالق ، كما أنه يوجد الآن في نصارى أوربا وغيرهم موحدون يعتقدون أن المسيح نبي ورسول وليس إلهًا .

قال الدكتور يوسف البروتستانتى فى تاريخ الكتاب المقدس : ﴿ طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر ، الله الآب ، والله الابن والله الروح القدس ، فالأب ينتمى الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفداء وإلى الروح القدس التطهير ، غير أن هذه الثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء » والعمدة عندهم فى هذه العقيدة عبارة جاءت فى إنجيل يوحنا وهى : « فى البدء كانت الكلمة والكلمة كان عند الله والله هو الكلمة » وقد فسروا الكلمة بالمسيح ، فيصير معنى الفقرة الثالثة فى إنجيل يوحنا : « والله هو المسيح بن مريم » وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم ، ولا شك أن هذه العقيدة وثنية أخذت عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثنى الشرق والغرب ﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ﴾ . أى قل أيها النبى الكريم لهؤلاء النصارى : من يقدر على دفع الهلاك والموت عن المسيح وأمه ، بل عن سائر الخلق جميعاً إن أراد أن يهلكهم ويبيدهم . وخلاصة هذا أن المسيح وأمه من المخلوقات القابلة للفناء وإهلاك كسائر أهل الأرض ، فإذا أراد الله أن يهلكهما ويهلك أهل الأرض جميعاً لا يستطيع أحد أن يرد إرادته ، لأنه هو مالك الملك الذى يصرفه بمقتضى مشيئته وإرادته ، وإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولا عن أمه الهلاك ، كما لا يستطيع أن يدفعه عن غيره ، فكيف يكون هو الله الذى بيده ملكوت كل شيء ؟

ثم ذكر ما هو كالدليل على ذلك فقال :

﴿ والله ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أى فمن يملك من الله شيئاً إن أراد إهلاك المسيح وأمه وأهل الأرض قاطبة ؟ فهو صاحب الملك المطلق والتصرف فى السموات والأرض وما بينهما ، أى وما بين العالمين العلوى والسفلى بالنسبة إليكم .

ثم دفع شبهة تردد فى صدورهم من كيفية خلق عيسى فقال : ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ أى أن تلك الشبهة التى عرضت لكم وجعلتكم تزعمون أن المسيح بشر وإله ، هو أنه خلق على غير السنة العامة وأنه عمل أعمالاً عجيبة لا تصدر من عامة البشر ، فالله له ملك السموات والأرض ويخلق الخلق على مقتضى مشيئته ، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة ، كأصول أنواع الحيوان ، ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام ، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط ، وقد يخلق بعضها من ذكر وأنثى ، وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها عن بعض ، ولا على ألوهية لبعضها ، ولا حلول الإله الخالق فيها فسنة الله فى خلق المسيح ومزايه لا تدل على كونه إلهًا وأوربا ، لأن هذه المزاي فى الخلق كلها بمشيئة الخالق ، ولا يخرجها المخلوق عن كونه مخلوقاً ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ وبقدرته تعالى يشاء فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى ، وتارة بدون أب ولا أم كما فى آدم ، وأخرى من أم ولا أب له ، كما فى عيسى عليه السلام .

والخلاصة : إن كل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته وإنما يعد بعضه غريباً بالنسبة إلى علم البشر الناقص لا بالنسبة إليه تعالى ، وكذلك غرابة بعض أفعالهم قد تكون عن علم كسبى يجهله غيرهم أو عن تأييد ربانى لا صنع لهم فيه ولا تأثير .

روى ابن اسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أتى رسول الله ﷺ ابن أبى (١) وبحرى بن عمرو وشماس بن عدى من اليهود ، فكلّمهم وكلموه ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا : ما نخوفنا يا محمد ؟ نحن والله أبناء الله وأحبّاءه ، كما قالت النصارى ذلك فأنزل الله فيهم : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحبّاءه ﴾ إلى آخر الآية . وقد جاء إطلاق هذا اللفظ « أبناء الله » فى الإنجيل على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين ، كما حكاه متى فى وعظ المسيح على الجبل ، من قوله ﴿ طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون ﴾ وكقول بولس فى رسالته إلى أهل رومية ﴿ لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله ﴾ ومن هذا يعلم أن « ابن الله » يستعمل فى كتبهم بمعنى حبيب الله ، الذى يعامله معاملة الآب لابنه من الرحمة والإحسان والتكريم ، ولكن النصارى تحكموا فى هذا اللقب فجعلوه بمعنى الابن الحقيقى للمسيح وبالمعنى المجازى بالنسبة إلى غيره من الصالحين .

وقد رد الله عليهم بقوله لنبيه : ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أى قل لهم أيها النبى إذا كان الأمر كما زعمتم فلم يعذبكم الله بذنوبكم فى الدنيا كما ترون ؟ من تخريب الوثنيين (٢) لمسجدكم الأكبر وبلدكم المرة بعد المرة ، ومن إزالة ملككم من الأرض ، والآب لا يعذب ابنه والحبيب لا يعذب حبيبه ، فلستم إذاً أبناء الله ولا أحبّاءه ، بل أنتم بشر من جملة ما خلق ، والله سبحانه لا يحاى أحداً ، وإنما يغفر لمن يعلم أنه مستحق للمغفرة ، ويعذب من يعلم أنه مستحق للعذاب ، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم ، فكل هذا لا يجزيكم قليلاً ولا قطميراً ، وإنما الذى ينفعكم هو الإيمان الصحيح وصالح الأعمال ، فالجزاء إنما يكون عليها لا على الأسماء والألقاب : ﴿ والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾ أى إنه تعالى الخالق ذو التصرف المطلق فى كل شىء بمقتضى علمه وحكمته وعدله وفضله ، وجميع المخلوقات عبيد له لأبناء ولا بنات : ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾ (٣) وفى ختمها بقوله ﴿ وإليه المصير ﴾ إشارة إلى أنه سيعذبهم فى الآخرة على هذا الكفر والدعوى الباطلة ، وأنهم عندما يصيرون إليه يعلمون أنهم عبيد أبقون يجازون ، لا أبناء ولا أحبّاء يحابون .

وقد كان اليهود يعتقدون أنهم شعب الله الخاص ميزهم عن سائر البشر فليس لشعب آخر أن يطلب مساواته بهم أو إن كان أصح منهم إيماناً وأصح أعمالاً ، ولا ينبغي أن يتبعوا محمداً ﷺ ، لأنه عربى لا إسرائيلى ، الفاضل لا يتبع المفضول ، والله لا يعاملهم إلا معاملة الوالد لأبنائه الأعزاء .

(١) فى ابن اسحق والقرطبى : نعمان بن أحنا وبحرى بن عمر وشماس بن عدى .

(٢) أى الغز والبابلى وهدم الهيكل . (٣) الآية رقم ٩٣ من سورة مريم .

والنصارى قد زادوا عليهم غروراً ، فهم مد ادعوا أن المسيح فداهم بنفسه وأنهم أبناء الله بولادة الروح والمسيح ابنه الحقيقي ويخاطبون الله تعالى بلقب الأب .
وقد جاهد النبي ﷺ غرور اليهود جهاداً عظيماً ، ولم يجد ذلك فيهم شيئاً ، فرفضوا دعوته وردوا ما جاءهم به ، من أن العمل مرضاة الله ، وبه تنال تزكية النفس وإصلاحها ، كما جاهد صلف النصارى وكبرهم^(١) وكانوا زمن التنزيل أشد من اليهود فساداً وضماً وعدواناً ، بشهادة المؤرخين ، ومع كل هذا يدعون أنهم أبناء الله وأحبائه وأنهم ليسوا في حاجة إلى إصلاح دينهم ولا دنياهم كما فعل اليهود مثل ذلك .

والخلاصة - أن هذه الآيات تبين لنا سنة الله في البشر وأن الجزاء إنما يكون على أعمال لا على الأسماء والألقاب ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ﴾ أى قد جاءكم رسولنا الذى بشرتم به فى كتبكم ، وأخبركم به أنبياءكم فقد جاء على لسان موسى : ﴿ أنه سيقم نبيا من بنى إسماعيل إخوتكم ﴾ وعلى لسان عيسى : « أنه سيجىء البارقليط روح الحق الذى يعلمكم كل شئ » وفى الإنجيل الرابع إن اليهود أرسلوا كهنة ولاويين « أحباراً » فسألوا يوحنا عليه السلام : أنت المسيح ؟ قال : لا ، أنت إيليا ؟ قال : لا ، أنت النبى ؟ قال : لا . هذا الرسول هو محمد بن عبد الله النبى الأمى يبين لكم على فترة من الرسل ، أى على انقطاع منهم وطول عهد بالوحى - جميع ما أنتم فى حاجة إليه من أمور دينكم ودنياكم من عقائد أفسدت عليكم نزعات الوثنية ، وأخلاق وآداب صحيحة أفسدها عليكم أفراطكم فى الأمور المادية ، والروحية ، وعبادات وأحكام تصلح أمور الأفراد والمجتمع .

ويدخل فى ذلك ما بينه لكم مما كنتم تخفون من الكتاب ، لإقامة الحجة عليكم ، ولولا أنه رسول من عند الله لما تسنى له أن يعرف شيئاً مما جاد به .

وقد أرسل صلوات الله عليه وسلامه وقد فشا التغيير والتجريف فى الشرائع المتقدمة - لتقادم عهدها وطول زمانها - فاختلط فيها الحق بالباطل والصدق بالكذب ، وصار ذلك عذراً ظاهراً فى إعراض الخلق عن العبادات ، إذ لهم أن يقولوا : يا إلهنا عرفنا أنه لا بد من عبادتك ، ولكن كيف نعبدك ؟ فبعث الله محمداً ﷺ فى ذلك الحين لإزالة هذا القدر الذى بينه سبحانه بقوله ﴿ أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ أى : إنما بعثناه إليكم كراهة أن تقولوا ما جاءنا من بشير يبشرنا بحسن العاقبة للمؤمنين ، وينذرنا بسوء عاقبة المفسدين الضالين .

ثم بين أنه أزال هذا العذر فقال : ﴿ فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ يبين لكم أمر النجاة والخلاص والسعادة الأبدية وأنها متوطة بالإيمان والأعمال وأن الله لا يحاى أحداً . ﴿ والله على كل شئ قدير ﴾ ومن دلائل قدرته نصر نبيه ﷺ وإعلاء كلمته فى الدنيا ، وفى ذلك رمز لكم إن كنتم من ذوى

الأحلام ، إلى ما يكون له من المنزلة في الدار الآخرة روى ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ، قال : دعا رسول الله ﷺ يهود إلى الإسلام فرغبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عباد وعقبة بن وهب : يا معشر يهود : اتقوا الله ، فوالله لتعلمن أنه رسول الله لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته فقال رافع بن حر يخله ووهب بن يهودا : إنا ما قلنا لكم هذا ، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى ، ولا أرسل الله بشيراً ولا نذيراً « فأنزل الله الآية .

بنو إسرائيل والأرض المقدسة

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ يَتَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَنْدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾

المفردات : ﴿ ملوكا ﴾ : أحراراً عندكم ما يكفيكم . ﴿ المقدسة ﴾ : الطاهرة ومن الأوثان وعبادتها . ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم ﴾ : لا ترجعوا عما أمرتم به . ﴿ جبارين ﴾ : جمع جبار وهو الطويل القوى المتكبر العاني مأخوذ من قولهم نخلة طويلة لا ينال ثمرها . ﴿ يتيهون ﴾ : التيه الحيرة ومنه صحراء تيهاء إذا تخير فيها سالكتها لعدم الأعلام التي يهتدى بها .

وهذا حديث بين نبي الله موسى وبنى إسرائيل يذكرهم فيه بآلاء الله ونعمه التي أنعم بها عليهم ، فقد جعل فيهم أنبياء كثيرين وجعل فيهم ملوكاً أحراراً ، وآتاهم ما لم يوت أحداً من عالم زمانهم ، وبعد أن ذكرهم بهذه النعم العظمى والآلاء الكبرى ، أمرهم أن يستعدوا للجهاد ، ويفتحوا الأرض المقدسة ، والمقصود بها على الأرجح أرض فلسطين ، وقد أخبرهم بأن الله قد كتب لهم هذه الأرض إن هم دخلوها ، ونهاهم موسى عن الارتداد والنكوص ، حتى لا يقعوا في الخسران المبين ، ولكن حقيقة اليهود تخلفوا ولا تتغير فالجبن والخور والاستكانة ، والحرص على الحياة من أصول طبائعهم ، قالوا : ﴿ يا موسى إنا ما قلنا لكم هذا ، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى ، ولا أرسل الله بشيراً ولا نذيراً » فأنزل الله الآية .

إذا فأى فضل لهم إذا دخلوها بغير جهاد . وهنا يعمل الإيمان عمله في رجلين منهم ، فيقولان بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ ولكن صوت الباطل يصرخ ويصيح في عرصات الدنيا ، وبكل وقاحة قالوا لموسى : ﴿ إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ فتأمل معى كيف جعلوا من الله رباً لموسى وحده ﴿ اذهب أنت وربك ﴾ أو ليس الله رب العالمين ، أو ليسوا من العالمين ؟ ثم أنظر كيف وصل التبجح بهم حداً بعيد المدى فقالوا لنبي الله ﴿ إنا هاهنا قاعدون ﴾ .

يرحم الله أصحاب محمد ﷺ عندما قالوا له يوم بدر وكانوا كما وصفهم رسول الله ﷺ في قوله : ﴿ اللهم فإنهم جياع فأطعمهم ، اللهم فإنهم حفاة فاحملهم ، اللهم فإنهم عراة فاكسهم ﴾ .

هؤلاء الجياع العراة الحفاة وقفوا أمام قوم غلاظ الأكباد جفاة الطباع قساة القلوب ، فماذا قال هؤلاء الجياع العراة الحفاة ، لمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية ، قالوا : ﴿ يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك ، وعلمنا أن ما جئت به هو الحق ، والله يا رسول الله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، لا يتخلف منا رجل واحد ، فامض على بركة الله ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، وإنا لصدق في الوعد صبر عند اللقاء ، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، يا رسول الله سالم من شئت وعاد من شئت ، وصل حبال من شئت ، وأقطع حبال من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، ودع لنا ما شئت ، والذي بعثك بالحق إن الذى تأخذه من أموالنا أحب إلينا مما تدعه لنا ﴾^(١) .

فتأمل معى منطق أصحاب رسول الله الذى باشرت بشاشة الإيمان شفاف قلوبهم فجعلت من المتسحيل ممكنا ، ثم تأمل موقف بنى إسرائيل الذين تربعت الدنيا على قلوبهم ، فجعلتها في غطاء عن ذكر الله ، فكانوا لا يستطيعون سمعاً ، وفي نهاية المطاف ، قال موسى : ﴿ رب إلى لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ فجاء الحكم جازماً من أسرع الحاسبين وأعدل العادلين ، قال : ﴿ فإنها محرمة عليهم ﴾ ثم حكم عليهم بالتية أربعين عاماً جزاء وفاقاً ، فقد حيروا الأنبياء وقتلوهم واعتدوا على حرمة الله ، وإن قبائحهم لا يحصرها عد ولا يحيط بها حد ﴿ فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ المارقين المتعربين جاء في كتاب الظلال^(٢) في تفسير هذا المشهد ما نصه : ﴿ إنا لنلمح في كلمات موسى عليه السلام إشفاقه من تردد القوم ونكوصهم على الأعقاب ، فلقد جربهم من قبل في مواطن كثيرة ، في خط سير الرحلة الطويلة ، جربهم وقد أخرجهم من أرض مصر ، وحررهم من الذل والهوان باسم الله وبسلطان الله الذى فرق لهم البحر ، وأغرق لهم فرعون وجنده فإذا هم يمشون على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فيقولون : « يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » وما يكاد يغيب

(١) يراجع في هذا النص : ابن اسحاق ، وسيرة ابن هشام ، والطبقات الكبرى وتاريخ الطبرى ، وابن خلدون وابن الأثير وغيرها من كتب السير والتاريخ والمغازي عند الحديث عن غزوة بدر .

(٢) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ج ٢ ص ٦٩٤ إلى ٦٩٨ .

عنهم في ميقاته مع ربه ، حتى يتخذ السامري من الحلى التى سرقوها معهم من نساء المصريين عجلاً ذهباً له خوار ، ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون : إنه إله موسى الذى ذهب لميقاته ، وجربهم وقد فجر لهم من الصخر ينابيع في جوف الصحراء ، وأنزل عليهم المن والسلوى^(١) طعاماً سائغاً ، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا عليه من أطعمة مصر - أرض الذل بالنسبة لهم - فيطلبون بقلها وقثاءها وفومها وعدسها وبصلها ، ولا يصبرون عما ألفوا من طعم وحياة ، في سبيل العزة والخلاص والهدف الأسمى الذى يسوقهم موسى إليه وهم يتسكعون ، وجربهم في قصة البقرة التى أمروا بذبحها فتلكأوا أو تسكعوا في الطاعة والتنفيذ ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ ، وجربهم وقد عاد من ميقات ربه ومعه الألواح وفيها ميثاق الله عليهم وعهده ، فأبوا أن يعطوا الميثاق وأن يمضوا العهد من ربه ، بعد كل هذه الآلاء وكل هذه المغفرة للخطايا ، ولم يعطوا الميثاق حتى وجدوا الجبل منتوقاً فوق رؤوسهم « وظنوا أنه واقع بهم » لقد جربهم في مواطن كثيرة طوال الطريق الطويل ، ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة : أرض الميعاد التى من أجلها خرجوا ، الأرض التى وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكاً ، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا في رعاية الله وقيادته ، لقد جربهم فحق له أن يشفق ، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة فيحشد فيها ألمع الذكريات وأكبر البشريات وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات .

﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ نعمة الله ووعدده الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء ويجعلهم ملوكاً وإيتائه لهم بهذا وذلك ما لم يؤت أحداً من العالمين ، حتى ذلك التاريخ والأرض المقدسة التى هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعد الله ، فهى إذن يقين ، وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده ، وهذا وعده الذى هم عليه قادمون ، والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين ولكن إسرائيل هى إسرائيل الجبن والتحل والنكوص على الأعقاب ونقض الميثاق ﴿ قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها مكشوفة بلا حجاب ، ولو رفيق من التجميل ، ذلك انهم أمام الخطر ، فلا بقية اذن من تجميل ، ولا محاولة إذن للتشجع ، ولا مجال كذلك للتمجّل ، إن الخطر ماثل قريب ، ومن ثم لا يعصمهم فته حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض ، وإن الله قد كتبها لهم - فهم يريدونه نصراً رخيصاً لا ثمن له ولا جهر فيه ، نصراً مريحاً يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى ﴿ إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ . ولكن تكاليف النصر ليست هكذا كما تريدها يهود وهى فارغة القلوب من الإيمان .

﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ هنا تبرز قيمة الإيمان بالله والخوف من الله فهذان رجلان من الذين يخافون الله ، ينشئ لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين ، ويرزقهما شجاعة في وجه الخطر

(١) المن ندوة عليه كانوا يجدونها كل صباح على الصخور ، والسلوى طائر كطائر السمان يقع في أيديهم بلا جهد حتى يذبحوه ويأكلوه .

الموهوم ، وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان في ساعة الشدة ، وقيمة الخوف من الله في مواطن الخوف من الناس ، فالله سبحانه لا يجمع في قلب واحد بين مخافتين : مخافته - جل جلاله - ومخافة الناس ، والذي يخاف الله لا يخاف أحداً بعده ، ولا يخاف شيئاً سواه ﴿ ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ قاعدة في علم القلوب وفي علم الحروب ، أقدموا واقتحموا فمتى دخلتم على القوم في عقر دارهم انكسرت قلوبهم ، بقدر ما تقوى قلوبكم ، وشعروا بالهزيمة في أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ فعلى الله وحده يتوكل المؤمن ، وهذه هي خاصية الإيمان وعلامته ، وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه ، ولكن لم يقلان هذا الكلام ؟ لبنى إسرائيل ؟! ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ هكذا في وقاحة العاجز الذي لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مد اللسان ، أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان ﴿ فاذهب أنت وربك ﴾ فليس برهبهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال . ﴿ إنا ها هنا قاعدون ﴾ لا نريد ملكاً ولا نريد عزاً ، ولا نريد أرض الميعاد ودونها لقاء الجبارين !

هذه هي نهاية المطاف بموسى عليه السلام ، نهاية الجهر الجهر والسفر الطويل ، واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بنى إسرائيل ، نعم ها هي ذى نهاية المطاف ، نكوصاً عن الأرض المقدسة وهو معهم على أبوابها ، ونكولاً عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق ، فماذا يصنع وبمن يستجير ؟ ﴿ قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ دعوة فيها الألم وفيها الالتجاء وفيها الاستسلام وفيها بعد ذلك المفاصلة والحسم والتصميم .

وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه ، ولكن موسى في ضعف الإنسان المخدول ، وفي إيمان النبي الكليم ، وفي عزم المؤمن المستقيم ، لا يجد متوجهاً إلا الله يشكو له بثه ونجواه ، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين ، فما يربطه بهم شيء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق ... ما يربطه بهم نسب ، وما يربطه بهم تاريخ ، وما يربطه بهم هذه الدعوة إلى الله وهذا الميثاق مع الله ، وقد فصلوه ، فأنبت ما بينه وبينهم إلى الأعماق .. وما عاد يربطه بهم رباط ، إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون ، إنه مستمسك بميثاق الله وهم ناكصون ، هذا هو أدب النبي وهذه هي خطة المؤمن ، وهذه هي الآصرة التي يجتمع عليها أو يتفرق عليها المؤمنون ، لا جنس ... ولا نسب ... لا قوم ... لا لغة لا تاريخ ... لا وشيعة . كل وشائج الأرض ... إذا انقطعت وشيعة العقيدة ، وإذا اختلف المنهج والطريق . واستجاب الله لنبيه وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين ﴿ وقال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ .

وهكذا أسلمهم الله . وهم على أبواب الأرض المقدسة للتيه وحرم عليهم الأرض التي كتبها لهم ، والأرجح أنه حرمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل .. جيل يعتبر بالدرس وينشأ في خشونة الصحراء وحريتها ... صلب العود ، جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان في مصر ، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل ، والذل والاستعباد والطغيان يفسد

فطرة الأفراد وكما يفسد فطرة الشعوب ، ويتركهم السياق هنا في التيه لا يزيد على ذلك ، وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية ... إلى الجمال الفني على طريقة القران في التعبير .

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس مما قصه الله عليهم من القصص فحين واجهوا الشدة - وهم قلة - أمام نفي قريش في غزوة بدر ، قالوا لنبيهم ﷺ : إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ لكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا فإنا معكما مقاتلون وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآني في التربية بالقصص عامة ... وبعض جوانب حكمة الله في تفصيل قصة بنى إسرائيل .

نبأ ابني آدم

* وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سُوءَ أَخِيهِ قَالَ يُوِيلْتَنِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سُوءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

المفردات : ﴿ واتل ﴾ : التلاوة القراءة ﴿ نبأ ﴾ : هو الخبر المهم . ﴿ قربانا ﴾ : ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من الذبائح وغيرها ﴿ بسطت إلى يدك ﴾ مددتها لتعتدى على . ﴿ تبوء ﴾ : ترجع بعقاب يعادل الإثم ويساويه . ﴿ فطوَّعت له نفسه ﴾ : شجعت وزينت . ﴿ سوءة ﴾ : السوءة العورة والمراد الجثة . ﴿ ياويلتي ﴾ : يا فضيحتي احضري والويل حلول الشر والويلة الفضيحة والبلية : أى وافضيحتاه . ﴿ والأجل ﴾ : فى الأصل الجناية ، يقال : وأجل عليهم شرا : أى جنى عليهم جناية ثم استعمل فى تعليل الجنايات ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل سبب . ﴿ والبينات ﴾ : الآيات الواضحة ، ﴿ والإسراف ﴾ : البعد عن حد الاعتدال مع عدم المبالاة .

هذه قصة تربوية ، تعبر عن مدرسة من مدارس القرآن ، تفيض عبرة وتتفجر حكمة ، لذا أمر الله

رسوله ومصطفاه ﷺ أن يتلوها على البشرية جمعاء .

وسماها القرآن نبأ لأن النبأ هو الخبر العظيم ، وأضاف النبأ إلى ابني آدم لأن مكمن العبرة فيهما ، فعليهما تدور أحداث القصة : لقد خلق الله الأرض طاهرة التربة طيبة مباركة ، فملأها أهلها ذنوبا وانحرافات ومخالفات وجرائم وجنایات .

وكأني بك يا ابن آدم وقد حملت على آلة حذباء إلى مثواك الأخير ، ووضعت على شفير القبر ، وكأني بالقبر يقول لك بلسان حاله : يا ابن آدم : أتركت الدنيا أم الدنيا تركتك ؟ أجمعت الدنيا أم الدنيا جمعتك ؟ أعجلت المنية أم المنية عاجلتك ؟ يا ابن آدم لقد خرجت من التراب وعدت إلى التراب ... خرجت من التراب بغير ذنب وعدت إلى التراب بكل ذنب ، اعلم يا ابن آدم أن لا بد لك من قرين يدفن معك وهو حي ، وتدفن معه وأنت ميت : إن كان كريما أكرمك ، وإن كان لثيما خذلك ، اجعله صالحا فإنه عملك .

أول جريمة وقعت على ظهر الأرض : الحسد عندما حسد إبليس آدم فخالف أمر الله في السجود له ، ووسوس له حتى أخرجه من الجنة ، ثم حسد قابيل هابيل ، وكانت الجريمة الثانية القتل ، والقرآن الكريم عندما ذكر هذه القصة نص على مكمن العبرة فيها ، فقال : ﴿ إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ﴾ وإن كان المفسرون قد ذكروا أسبابا لتقديم هذا القربان ، نذكر بعضها فنقول وبالله التوفيق :

عن ابن عباس قال : نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها ، وأمر أن ينكحها غيره من إختوتها وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة ، فبينما هم كذلك إذ ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى قبيحة دميمة ، فقال أخوالد ميمة : أنكحني أختك وأنكحك أختي ، فقال : لا أنا أحق بأختي ، فقربا قربانا فتقبل من صاحب الكبش ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله .

وروى ابن أبي حاتم بإسناده ، عن محمد بن علي بن الحسين ، قال : قال آدم عليه السلام لهابيل وقابيل : إن ربي عهد إلي أنه كائن من ذريتي من يقرب القربان فقربا قربانا ، حتى تقر عيني إذا تقبل قربانكما ، فقربا وكان هابيل صاحب غنم ، فقرب أكولة غنم خير ماله ، وكان قابيل صاحب زرع فقرب مشاقة^(١) من زرعه ، فانطلق آدم معهما ، ومعهما قربانهما ، فصعدا الجبل فوضعا قربانهما ، ثم جلسوا ثلاثتهم آدم وهما ينظران إلى القربان ، فبعث الله نارا حتى إذا كانت فوقهما دنا منها عنق ، فاحتمل قربان هابيل وترك قربان قابيل ، فانصرفوا وعلم آدم أن قابيل مسخوط عليه ، فقال : ويلك يا قابيل رد عليك قربانك فقال قابيل : أحببته فصليت على قربانه ودعوت له فتقبل قربانه ، ورد على قرباني ، فقال قابيل لهابيل : لأقتلك وأستريح منك : دعا لك أبوك فصلى على قربانك فتقبل منك ، وكان يتوعده بالقتل ، إلى أن احتبس هابيل ذات عشية في غنمه ، فقال آدم : يا قابيل أين أخوك ؟ قال : وبعثني له

(١) المشاقة من الزرع أسوأ ما نتج من الأرض .

راعيًا لا أدري ؟ فقال آدم : ويلك يا قابيل انطلق فاطلب أخاك ، فقال قابيل في نفسه : الليلة أقتله ، وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو منقلب^(١) ، فقال : يا هابيل تقبل قربانك ورد على قرباني ، لأقتلك ، فقال هابيل : قربت أطيب مالى ، وقربت أنت أحب مالك ، وإن الله لا يقبل إلا الطيب ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فلما قالها غضب قابيل فرفع الحديدة وضربه بها ، فقال : ويلك يا قابيل : أين أنت من الله ؟ كيف يجزيك بعملك : فقتله فطرحه في حوبة من الأرض ، وحثا عليه شيئاً من التراب .

روى العوفي عن ابن عباس قال : من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه ، وإنما كان القربان يقربه الرجل ، فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالا : لو قربنا قربانا ، وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله أرسل إليه نارا فتأكله ، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار ، فقربا قربانا وكان أحدهما راعيا ، وكان الآخر حراثا ، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها وقرب الآخر بعض زرعه ، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع ، وإن ابن آدم قال لأخيه : أتمشى في الناس وقد علموا أنك قربت قربانا فتقبل منك ورد على ، فلا والله لا ينظر الناس إلى وأنت خير مني ، فقال ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ فقال له أخوه ما ذنبى ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٢) .

قصة الآيات

لهذه الآيات قصة ، وقصص القرآن كلها عبرة وعظة لأولى الأبواب ، وقد وضع المفسرون هذه القصة توضيحاً فيه العبرة والعظة ، قالوا : إن الله تعالى يسوق هذه القصة : ليبين طبائع النفوس الموروثة ، وما يفعله الحسد الكامن والداء الباطن ، الذى يقضى على أقوى سبب وأمتن رابطة ، وهى الأخوة ، وكيف كان السبب فى أول قتل فى الأرض ؟ فإذا لا تأس يا محمد ولا تعجب من فعل اليهود ﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ فهم قوم يحسدون الناس على ما آتاهم ربهم من فضله ، على أن هذا طبع فى أبناء آدم وائل يا محمد على قومك وعلى كل من تبلغه دعوتك ، اتل عليهم نبأ هاماً وخبراً متلبساً بالحق والصدق لا مبالغة فيه ولا كذب ، كما يفعل اليهود فى أخبارهم وكتبهم من التحريف والتبديل : خبر ابنى آدم لصلبه على الأصح ، قيل هما : قابيل (القاتل) وهابيل القاتيل ، وكانت عادتهم أن يتزوج ذكر البطن الأولى أنثى البطن الثانية وبالعكس ، فصادف أن قابيل معه توأم جميلة ، ومع هابيل توأم دميمة رغب عنها قابيل ، وطلب توأمه وحسد هابيل عليها ، فلما احتكما إلى أبيهما آدم قال : كل منكم يقرب قرباناً ، والذى يتقبله الله منه بالحريق يأخذ الجميلة ، فقدم قابيل - وكان زارعا - قليلاً من سنبل القمح ، وقدم هابيل - وكان راعيا للغنم - كبشاً سميناً ، فتقبل الله من هابيل ولم يتقبل من قابيل ، فحنق عليه أكثر ، وقال : ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ قال هابيل : ولم يا أخى وما ذنبى فى أن الله لم يتقبل منك ؟ فأصلح نفسك ، وقدم مخلصاً لوجه الله ، فإنما ﴿ يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ يا أخى لئن مددت إلى يدك بالسوء تريد أن تقتلنى ظلماً وعدواناً ﴿ مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ أبداً .

(٢) ذكر هذه الروايات الامام السيوطى فى الدر المنثور ج ٢ ص ٢٧٣ .

(١) أى عائد من المرعى .

وذلك لأنى أخاف الله رب العالمين ، الذى تعهدنا بالعناية والرعاية ، وخلقنا على أتم خلق وأكمله ، فمن يتعدى على هذا الخلق سوى فقد استحق العقاب الشديد !! يا أخى : أنى لا أريد مقابلة الجريمة بالجريمة أصلاً ، فإنك إن فعلتها تبوء بإثم قتلى وإثمك الخاص بك ، الذى كان من شأنه عدم قبول قربانك ، فارجع عما أنت مقدم عليه !! وكيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه ؟ والجواب أنه أراد ذلك حينما بسط إليه يده بالقتل فعلاً ﴿ وجزاء سيئة مثلها ﴾^(١) . إنك يا أخى إن فعلت هذا الجرم فستكون من أصحاب النار الملازمين لهما ، ﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾^(٢) !! ونرى أنه نفره من القتل بثلاث : الخوف من الله ، أن يبوء بإثمه وإثم نفسه ، كونه من أصحاب النار ومن الظالمين ..

والقاتل مهما كانت نفسه ملوثة بحب الانتقام والقتل ، يرى فى الإقدام على هذا العمل جرماً وفضاعة فيتردد الله ولا ينزال كذلك حتى تشجعه الأمانة بالسوء ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ﴾ وهدم ما بناه ، وأتقنه ، ﴿ فأصبح من الخاسرين ﴾ وأى خسارة أكبر من هذه الخسارة فى الدنيا والآخرة ؟؟ ربي أنه لما قتله ، لم يعرف كيف يوارى جثته ، ويتحير ذلك ﴿ فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ﴾ منقبا على غذائه^(٣) ، فحفر حفرة ، فرآه قابيل ففطن إلى مثل عمله ، ففعل لأخيه مثلها وواراه فيها ، وقال : ﴿ يا ويلتى ﴾ احضرى فقد حان وقتك ، ﴿ أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ﴾ ؟ والندم الذى حصل لم يكن على القتل بل على عجزه عن مواراة أخيه .

بسبب هذا الجرم الشنيع والفعلة القبيحة ، التى فعلها ابن آدم ﴿ كتبنا على بنى إسرائيل ﴾ وإنما خصهم القرآن بالذكر ، وإن كان القتل محرماً قبلهم من الأمم السابقة ، لأن التوراة أول كتاب حرم فيه القتل كتابة بسبب طغيانهم وسفكهم الدماء وقتلهم الأنبياء بسبب الحسد الكامن فى نفوسهم ... كتبنا على بنى إسرائيل ومن بعدهم : ﴿ أنه من قتل نفساً بغير نفس ﴾ أى بدون قصاص ﴿ أو ﴾ بدون ﴿ فساد فى الأرض ﴾ يزلزل الأمن والطمأنينة ، ويهلك الحرث والنسل وذلك مثل قطع الطريق ، من يفعل شيئاً من ذلك ﴿ فكأنما قتل الناس جميعاً ﴾ واعتدى على المجتمع البشرى كله !! أفلا يكون هذا الجرم فظيلاً ؟ إنه لفظيع ، ولذلك كان من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً ﴾^(٤) الآية من سورة النساء .

ومن هنا تعلم أن نفس القاتل ليست ملكه ، بل هو ملك للمجتمع الذى يعيش فيه ، فمن اعتدى على نفس ولو كانت نفسه (بالانتحار) استحق عقاب الله الشديد يوم القيامة .. ومن أحيا نفساً بأى سبب كان ، ﴿ فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ ، إذ كل نفس عضو فى المجتمع . ﴿ ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ﴾ الواضحات كالشمس أو أشد ، ﴿ ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون ﴾ بعد هذا البيان الساطع .

وهذه الآية تقرر بوضوح مبدأ تكافل الأمة الواحدة وتضامنها كوحدة خاصة .

(٣) آية رقم ٩٣ من سورة النساء .

(١) جزء من الآية ٤٠ من سورة الشورى .

(٢) ذكر الله الوجه بعض المفسرين ، لكن الوجه الأشهر هو اقتتال الغراب مع أخيه ثم حفره له فدفن : يراجع القراطى ج ٦ ص ١٤١ .

حد الحرابة

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾

المفردات : ﴿ يحاربون ﴾ : الحرب ضد السلم والأمن على النفس والمال . ﴿ فسادا ﴾ : الفساد ضد الصلاح ، وكل من أخرج شيئاً عن وضعه الصالح له يقال إنه أفسده . ﴿ ينفوا من الأرض ﴾ : ينقلوا من البلد أو القطر الذي أفسدوا فيه إلى غيره .

روى أحمد والبخارى ومسلم ، وأصحاب السنن ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ﴿ أن ناساً من عُكْلٍ وعرينة ^(١) قدموا على النبي ﷺ وتكلموا بالإسلام فاستوخموا المدينة (وجدوها رديئة المناخ) فأمر لهم النبي ﷺ بذور (بضع من الإبل) وراعى وأمرهم أن يخرجوا فليشربوا من أبوالها وألبانها ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة ^(٢) كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعى النبي واستاقوا الذور ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فبعث الطلب في آثارهم فأمر بهم فسملوا أعينهم (كحلوها بمسامير الحديد المحماة) وقطعوا أيديهم وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم ^(٣) .

زاد البخارى أن قتادة الذى روى الحديث عن أنس قال « بلغنا أن النبي ﷺ عليه وسلم بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة » .

إن هاتين الآيتين تضمنتا عقاب المحاربين المفسدين فى الأرض الذين يعملون أعمالاً مخلة بالأمن على الأنفس والأموال والأعراض فى بلاد الإسلام ، معتصمين فى ذلك بقوتهم مع عدم الإذعان لأحكام الشريعة باختيارهم ، وهو أن يطاردتهم الحكام ويتبعوهم حتى إذا قدروا عليهم عاقبوهم بتلك العقوبات ، بعد تقدير كل مفسدة بقدرها ، ومراعاة المصلحة العامة ، ومن تاب قبل القدرة عليه لا يعاقب بما هنا من العقوبات ، بل حكمه حكم سائر المسلمين .

قوله تعالى : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾ أى إن جزاء الذين يفعلون ما ذكر عقابهم ما سيذكر بعد على سبيل الترتيب والتوزيع على جنایاتهم ومفاسدهم ، لكل منها ما يليق بها من العقوبة .

(٢) أرض خارج المدينة ذات حجارة سوداء .

(١) قبيلتان من قبائل العرب .

(٣) روى الحديث بالفاظ مختلفة دون اختلاف فى المعنى : القرطبي ج ٦ ص ١٤٨ .

وقد جعل هذا النوع من العدوان محاربة لله ورسوله ، لأنه اعتداء على الحق والعدل الذى أنزل الله على رسوله ، ولما فيه من عدم الإذعان لدينه وشرعه فى حفظ الحقوق ، كما قال تعالى فى المصرين على أكل الربا : ﴿ فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾^(١) فمن لم يذعنوا لأحكام الشريعة يعدوا محاربين لله والرسول ، ويجب على الإمام الذى يقيم العدل ويحفظ النظام أن يقاتلهم على ذلك ، كما فعل أبو بكر بما نعى الزكاة حتى يفيثوا ويرجعوا إلى أمر الله ، ومن رجع منهم فى أى وقت يقبل منه ويكف عنه ، وقوله : ﴿ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً ﴾ أى يسعون فيها سعى فساد ، أى مفسدين لما صلح من أمور الناس فى نظم الاجتماع وأسباب المعاش .

وجمهور العلماء على أن الآية نزلت فى قطاع الطريق من المسلمين كما تدل على ذلك حادثه القرنين الذين خدعوا النبى ﷺ والمسلمين بإظهار الإسلام ، حتى إذا تمكنوا من الإفساد بالقتل والسلب عادوا إلى قومهم وأظهروا شركهم معهم ، وقد عاقبهم النبى ﷺ بمثل عقوبتهم ، عملاً بقوله تعالى ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾^(٢) ويشترط فى المحاربين ثلاثة شروط .

١ - أن يكون معهم سلاح وإلا كانوا غير محاربين .

٢ - أن يكون ذلك فى الصحراء فإن فعلوا ذلك فى البنيان لم يكونوا محاربين كما قال أبو حنيفة والثورى وإسحق .

٣ - أن يأتوا مجاهرة ويأخذوا المال ، فإن أخذوه خفية فهم سراق ، وإن اختطفوه وهربوا فهم منتهبون لا قطع عليهم ، وكذا إن خرج الواحد والاثنان على آخر قافلة فاستلبوا منها شيئاً لأنهم لا يرجعون إلى قوة ومنعة ، وإن خرجوا على عدد يسير فقهرهم فهم قطاع طريق . والجزاء الذى يعاقب به أمثال هؤلاء المفسدين أحد أنواع أربعة : إما القتل ، أو الصلب ، أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ، أو النفى من الأرض ، وفوز لأولى الأمر الاجتهاد فى تقدير العقوبة بقدر الجريمة .

والحكمة فى عدم التعيين والتفصيل : أن المفسد كثيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وضررها يختلف كذلك ، فمنها القتل ومنها السلب ومنها هتك الأعراض ، ومنها إهلاك الحرث والنسل . أى قطع الشجر وقلع الزرع وقتل المواشى والدواب . أو الجمع بين جريمتين أو أكثر من هذه المفسدات ، فالإمام أن يقتلهم إن قتلوا أو يصلبهم إن جمعوا بين أخذ المال والقتل ، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إن اقتصروا على أخذ المال ، أو ينفوا من الأرض إن أخافوا الناس وقطعوا عليهم الطرق .

وهؤلاء المفسدون ضوعفت لهم العقوبات ، فالقتل العمد يوجب القتل ، ويجوز لولى الأمر العفو وترك القصاص ، فغلظ ذلك فى قاطع الطريق ، وصار القتل حتماً لا هوادة فيه ، ولا يجوز العفو عنه ، وأخذ المال يتعاقب به قطع اليد اليمنى أو غير قاطع الطريق ، فغلظ فى قاطع الطريق بقطع الطرفين ، وإن جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع بين حقتهم بين القتل والصلب ، لأن بقاءهم مصلوبين فى ممر الطرق يكون سبباً دائماً لإتباع هذه العقوبة عيصير ذلك زاحراً لغيرهم على الإقدام على مثل هذه المعصية ، وإن اقتصروا على مجرد الإخافة عوقبوا بعقوبة خفيفة وهى النفى من الأرض .

ثم بين آثار هذه العقوبة في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ أى ذلك الذى ذكر من عقابه ذل لهم وفضيحة في الدنيا ، ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم من المسلمين ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم بقدر تأثير إفسادهم في تدنيس نفوسهم وتدنيسها ، وظلمة أرواحهم بما اجتاحت من الذنوب والآثام .

ثم استثنى ممن يستحقون العقوبة من تاب فقال : ﴿ إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ﴾ أى لكم أن تعاقبوا هذا العقاب الذى تقدم ذكره من قطعوا الطريق وعاثوا في الأرض فساداً ، إلا من تابوا إلى الله وأنابوا من قبل أن يتمكن منهم الحاكم ويقدر على عقوبتهم ، فإن توبتهم حينئذ وهم في قوة ومنعة جدية بأن تكون قوية خالصة لله ، صادرة عن اعتقاد بقبح الذنب والعزم على عدم العودة إلى فعل مثله ، وليس سببها الخوف من عقاب الدنيا ، وإذا فهم قد تركوا الإفساد ومحاربة الله ورسوله ، ومن ثم لا يجمع لهم بين أشد العقاب في الدنيا والعذاب في الآخرة ، بل يصيرون لمغفرة الله ورحمته كما قال : ﴿ فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ أى فاعلموا أن الله غفور لما فرط من ذنوبهم ، رحيم بهم يرفع العقاب عنهم ، وهذه التوبة ترفع عنهم حق الله كله من عقاب في الدنيا والآخرة ، ولكن تبقى حقوق العباد فلمن سلبهم التائب أموالهم أيام إفساده أن يطالبوه بها ، ولمن قتل منهم أحداً أن يطالبوه بدمه ، وهم مخيرون بين القصاص والدية والعفو فقد ثبت عن الصحابة إسقاط الحد عمن تاب ، ولم يثبت أن أحداً تقاضى التائب حقاً ولم يسمع له الحاكم وإذا فتوبته لا تصح إلا إذا أعاد الأموال المسلوقة إلى أربابها فإذا رأى ولى الأمر إسقاط حق مالى عن المفسد مراعاة للمصلحة العامة ، وجب أن يضمه من بيت المال .

طريق الفلاح

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٥﴾
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ
 الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ
 مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٧﴾

المفردات : ﴿ الوسيلة ﴾ : ما يتوصل به إلى تحصيل المقصود وهى القربة وتطلق على منزلة في الجنة . ﴿ والجهاد ﴾ : بذل الطاقة واستفراغ الوسع . ﴿ تفلحون ﴾ : أى تفوزون برضى الله في الدنيا والآخرة . ﴿ ليفتدوا به ﴾ : أى ليدفعوه فدية . ﴿ عذاب مقيم ﴾ : دائم وباق لا يرفع عنهم .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون ﴾ خطاب كريم من رب كريم إلى المؤمنين الكرماء ، وقد أمرهم سبحانه في هذه الآية بثلاثة أوامر ، كلها تشتمل على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم :

أمرهم بالتقوى وابتغاء الوسيلة والجهاد في سبيله ، ثم رتب سبحانه وتعالى على هذه الأمور الثلاثة أعظم العواقب وأشرف وأنبل الأهداف ، وهل هناك أسمى وأشرف من الفلاح ؟ إنه السعادة الأبدية ، والسعادة مملكة لا يهبها إلا مالك الملك وملك الملوك ، أما التقوى فهي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، فمن خاف الله فقد عرفه ومن عرفه فقد أحبه ، ومن أحبه الله كان سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها^(١) ، ولسانه الذي يتكلم به ، وقلبه الذي يعي به ، ولئن سأل الله ليعطينه ، ولئن استعاذ به ليعيذه ، ولئن استنصره لينصره ، ويكون جار الله في الجنة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴿ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾^(٢) . والتقوى هي السلاح الأقوى ، وهي سنام الأمر وعموده ، ومحلقها الصدر ، كما أخبر بذلك الصادق المعصوم صلوات ربي وسلامه عليه ، مشيراً إلى صدره قائلاً : « التقوى ها هنا » فهي عمل من أعمال القلوب لا يطلع عليه إلا الله .

والتقوى هي مدار تفريخ الكروب وستر العيوب وتكفير الذنوب وإحياء القلوب ، قال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾^(٣) وقال : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾^(٤) وقال : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾^(٥) وهي الكلمة الجامعة التي وصي الله بها كل الأمم . قال تعالى : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾^(٦) وهي حصن الأمان للذرية إذا مات عائلها . قال تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله ﴾^(٧) .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذي يأتي قريب ولكن الذي يمضي بعيد

ويأتي الأمر الثاني بعد التقوى داعياً جماعة المؤمنين إلى ابتغاء الوسيلة ، والوسيلة هي : التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة التي شرعها في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ، ومنها ما ورد في الحديث القدسي

(١) وذلك لما جاء في الحديث القدسي الذي رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذه ، وما ترددت نفسي عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مسارته » .

(٥) جزء من الآية ٥ من سورة الطلاق .

(٢) جزء من الآية ٧٠ من سورة النساء .

(٦) جزء من الآية ١٣١ من سورة النساء .

(٣) جزء من الآيتين ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

(٧) جزء من الآية ٩ من سورة النساء .

(٤) جزء من الآية ٤ من سورة الطلاق .

الجليل عن الله عز وجل « ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » . فكل عمل صالح تقربت به إلى الله فهو الوسيلة التى أمر الله عباده المؤمنين بابتغائها . قال جل شأنه : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ (١) .. ولم يؤثر عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أن سألوا غير الله كشف الضر أو جلب النفع ، وليس من معنى الوسيلة أن تسأل غير الله كشف ضر أو جلب نفع ، بل العقيدة الحقة أن تعلم علم اليقين بل حق اليقين وعين اليقين أن الله تعالى هو الضار النافع ، الحافض الرافع ، المعز المذل ، المعطى المانع . المحيى المميت ، الباعث الوارث ، الواجد الماجد ، القهار الجبار الغفار ، بيده الأمر كله ﴿ وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ (٢) . أخرج الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت رديف النبي ﷺ فقال : يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ قلت : بلى فقال : احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدرُوا عليه وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدرُوا عليه ، واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً » .

وقد تأتى الوسيلة ويراد بها أعلى منزلة فى الجنة ، وقد روى الإمام مسلم بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أن سمع النبي ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه ﷺ صلى على صلاة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبداً من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « سلوا الله لى الوسيلة فإنه لم يسألها لى عبد فى الدنيا إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة » .

ثم يأتى بعد ذلك الأمر بالجهاد فى سبيل الله ، وهو من أعظم الأمور فى الإسلام شأننا قال تعالى : ﴿ وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون ﴾ . والجهاد هو بذل الطاقة واستفراغ الوسع فى سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله ، ويشمل الجهاد بالنفس والمال والكلمة فى سبيل الدعوة إلى الله ، كما يشمل جهاد النفس وكبح جماحها بثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات ، لئلا تتردى فى القبائح : قال تبارك اسمه فى جهاد النفس والمال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (٣) . وقال تعالى فى شأن الجهاد بأوسع معانيه : ﴿ والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ (٤) . فمن اتقى الله وابتغى إليه الوسيلة بالعمل الصالح وجاهد فى سبيله كان أهلاً بتلك الغاية النبيلة والشرف

(١) الآية ٥٧ من سورة الاسراء .

(٢) الآية ١٢٣ من سورة هود .

(٣) الأيتان ١٠ ، ١١ من سورة الصف .

(٤) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

العظيم ، كان أهلاً للفلاح والفوز والنجاح ، فاللهم إنا نسألك علماً نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل داء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هذا وعيد جاء بعد الوعد ، فقد وعد الله تعالى المؤمنين المتقين المتقربين إلى الله بالعمل الصالح ، المجاهدين في سبيله وعدهم بالفلاح والفوز المبين ، وهو يشمل سعادة الدارين . قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) يأتي الوعيد بعد ذلك بالنار للذين كفروا وحججوا ، سواء أكان كفرهم ناشئا عن شرك أم عناد أم إنكار أم نفاق ، فالكفر كله ملة واحدة . هؤلاء الذين قال الله تعالى فهم : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ^(٢) .

هؤلاء لو يملكون ما في الأرض جميعا ومثله معه - كما قال تعالى - ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم : قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ^(٣) فيوم القيامة هو يوم العدالة : قال تعالى : ﴿ يَوْمَ الْمَظْهَرِ ﴾ يفتدى من عذاب يومئذ بينه وصاحبه وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه كلا إنها لظي ^(٤) . وقال جل شأنه : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ يَوْمَ يَهْرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ ^(٥) . وصدق ربنا إذ يقول : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ^(٦) ويزيد القرآن الكريم هذا المقام توكيدا ، وهذا الوعيد تثبيتا فيقول : ﴿ يَرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أى ثابت دائم . هم يريدون والله يريد غير ما يريدون ﴿ وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ لِقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ ، وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ ^(٧) ويزيد الله تعالى هذا المعنى جلاء فيقول : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَابَا لَابَثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا جَزَاءً وَفَاقًا إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَابًا وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ ^(٨) .

• عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يُوْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقَالُ لَهُ : يَا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَضْجِعَكَ ؟ » فيقول : شر مضجع فيقال : هل تفتدي بقراب الأرض ذهبا ؟ قال فيقول نعم يارب ، فيقول الله تعالى : كذبت قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النار » . رواه مسلم وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال « يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة » قال فقلت لجابر بن عبد الله يقول الله ﴿ يَرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾

(٥) الآيات ٣٣ - ٣٧ من سورة عبس .

(٦) الآيات ٨٨ - ٨٩ من سورة الشعراء .

(٧) الآيات ٧٧ ، ٧٨ من سورة الزخرف .

(٨) الآيات ٢١ - ٣٠ من سورة النبأ .

(١) الآية ٩٧ من سورة النحل .

(٢) الآية ٢٣ من سورة العنكبوت .

(٣) الآيات ٩٠ ، ٩١ من سورة آل عمران .

(٤) الآيات ١١ - ١٥ من سورة المعارج .

قال اتل أول الآية ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به﴾ الآية ألا إنهم الذين كفروا ^(١).

حد السرقة

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾
فَمَن تَابَ مِّنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾

المفردات : ﴿السارق﴾ : من يأخذ المال خفية من حرز مثله . ﴿نكالا﴾ : مأخوذ من النكل وهو القيد ، ولاشك أن هذه عقوبة تمنع الناس من ارتكاب السرقة .

أحكام تتعلق بالسرقة

إن الإسلام قد أحترم المال ، من حيث إنه عصب الحياة ، واحترم ملكية الأفراد له ، وجعل حقهم فيها حقا مقدسا ، لا يجمل لأحد أن يعتدى عليه بأى وجه من الوجوه ، ولهذا حرم الإسلام : السرقة ، والغصب ، والاختلاس ، والخيانة ، والغش ، والتلاعب بالكيل والوزن ، والرشوة واعتبر كل ما أخذ بغير سبب مشروع أكلا للمال بالباطل . وشدد في السرقة ، فقضى بقطع يد السارق التى من شأنها أن تبشر السرقة ، وفى ذلك حكمة بينة ، إذ أن اليد الخائنة بمثابة عضو مريض يجب بتره ليسلم الجسم ، والتضحية ببعض من أجل الكل مما اتفقت عليه الشرائع والعقول ، كما أن فى قطع يد السارق عبرة لمن تحدثه نفسه بالسطو على أموال الناس ، فلا يجرو أن يمد يده إليها ، وبهذا تحفظ الأموال وتضان : يقول الله تعالى : ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا . نكالا من الله ، والله عزيز حكيم﴾ .

حكمة التشديد فى العقوبة :

والحكمة فى تشديد العقوبة فى السرقة دون غيرها من جرائم الاعتداء على الأموال ، هى ما جاء فى شرح مسلم للنووى ^(٢) : قال القاضى عياض رضى الله عنه : « صان الله الأموال بإيجاب القطع على السارق ، ولم يجعل ذلك فى غير السرقة ، كالاختلاس والانتهاب والغصب ، لأن ذلك قليل بالنسبة إلى السرقة ، ولأنه يمكن استرجاع هذا النوع بالاستدعاء إلى ولاية الأمور ، وتسهيل إقامة البينة عليه بخلاف السرقة ، فإنها تنذر إقامة البينة عليها فعظم أمرها ، واشتدت عقوبتها ، ليكون أبلغ فى الزجر عنها » .

(١) رواه القرطبي عن يزيد الفقيه عن جابر بعبارة مختلفة والمعنى واحد ج ٦ ص ١٥٩ .

(٢) ص ١٨٠ من الجزء الحادى عشر : طبع محمود ونوفيق سنة ١٩٤٥ .

أنواع السرقة :

والسرقة أنواع :

- ١ - نوع منها يوجب التعزير . ٢ - ونوع منها يوجب الحد .

والسرقة التي توجب التعزير هي السرقة التي لم تتوفر فيها شروط إقامة الحد ، وقد قضى الرسول ﷺ بمضاعفة الغرم على من سرق مالا قطع فيه : قضى بذلك في سارق الثمار المعلقة ، وسارق الشاة من المرتع . ففي الصورة الأولى : أسقط عن سارق الثمر والكثير (جمار النخل) ، وحكم : أن من أصاب شيئا منه بفمه . وهو محتاج إليه . فلا شيء عليه ، ومن خرج منه بشيء فعليه غرامة مثليه والعقوبة ، ومن سرق منه شيئا في جرينه « الجرن » فعليه القطع إذا بلغت قيمة المسروق النصاب الذي يقطع فيه . وفي الصورة الثانية : قضى في الشاة التي تؤخذ من مرتعها بثمانها مضاعفا ، وضرب نكال (أى ضربا يكون فيه عبرة لغيره » . وقضى فيما يؤخذ من عطنه بالقطع ، إذا بلغ النصاب الذي يقطع فيه سارقه . رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه .

السرقة التي عقوبتها الحد نوعان :

الأول : سرقة صغرى : وهي التي يجب فيها قطع اليد .

الثاني : سرقة كبرى ، وهي أخذ المال على سبيل المغالبة ويسمى الحراقة ، وتسمى أيضا قطع الطريق ، وهي خروج طائفة مسلحة في دار الإسلام لإحداث الفوضى وسفك الدماء ، وسلب الأموال وهتك الأعراض وإهلاك الحرث والنسل ، وعقوبتها : القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أو النفي من الأرض^(١) . وكلا منا الآن منحصر في السرقة الصغرى .

تعريف السرقة :

السرقة : هي أخذ الشيء في خفية ، يقال : استرق السمع : أى سمع مستخفيا ويقال : هو يسارق النظر إليه ، إذا هتبل غفلته لينظر إليه . وفي القرآن الكريم يقول الله سبحانه : ﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾^(٢) فسمى الاستماع في خفاء استراقا . وفي القاموس : السرقة والاستراق : الحجب مستترا لأخذ مال الغير من حرز .. وقال ابن عرفة : « السارق عند العرب هو ما جاء مستترا إلى حرز فأخذ منه ما ليس له » . ويفهم مما ذكره صاحب القاموس وابن عرفة أن السرقة تنتظم أموراً ثلاثة :

- ١ - أخذ مال الغير .

(١) سبق شرح ذلك عند تفسير قوله تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ... الآيات رقم ٢٣ ، ٢٤ من هذه السورة .

(٢) آية ١٨ من سورة الحجر .

٢ - أن يكون هذا الأخذ على جهة الاختفاء والاستتار .

٣ - أن يكون المال محرراً . أى موضوعاً في مكان خاص وليس في مكان عام مشاع فلو لم يكن المال مملوكاً للغير ، أو كان الأخذ مجاهرة ، أو كان المال غير محرر ، فإن السرقة الموجبة لحد القطع لا تتحقق .

المختلس والمنتهب والخائن غير السارق :

ولهذا لا يعتبر الخائن ، والمنتهب ، ولا المختلس سارقاً ، ولا يجب على واحد منهم القطع وإن وجب التعزير : فعن جابر رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ليس على خائن^(١) ولا منتهب^(٢) ولا مختلس^(٣) قطع » . رواه أصحاب السنن والحاكم والبيهقي . وعن محمد بن شهاب الزهري قال : « إن مروان بن الحكم أتى بإنسان قد اختلس متاعاً فأراد قطع يده ، فأرسل إلى زيد بن ثابت يسأله عن ذلك ، فقال زيد : ليس في الخلصة قطع » . رواه مالك في الموطأ . قال ابن القيم : وأما قطع يد السارق في ثلاثة دراهم وترك قطع المختلس والمنتهب والغاصب فمن تمام حكمة الشارع أيضاً ، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه ، فإنه ينقب الدور ، ويهتك الحرز ، ويكسر القفل ، ولا يمكن لصاحب المتاع الاحتراز بأكثر من ذلك ، فلو لم يشرع قطعه لسرق الناس بعضهم بعضاً ، وعظم الضرر واشتدت الحنة بالسراق . بخلاف المنتهب والمختلس ، فإن المنتهب : هو الذي يأخذ المال جهرة بمرأى من الناس فيمكنهم أن يأخذوا على يديه ويخلصوا حق المظلوم ، أو يشهدوا له عند الحاكم . وأما المختلس : فإنه إنما يأخذ المال على حين غفلة من مالكه وغيره ، فلا يخلو من نوع تفريط يمكن به المختلس من اختلاسه ، وإلا فمع كمال التحفظ والتيقظ لا يمكنه الاختلاس فليس كالسارق ، بل هو بالخائن أشبه .

وأيضاً فالمختلس إنما يأخذ المال من غير حرز مثله غالباً ، فإنه الذي يغافل ويختلس متاعك في حال تخليك وغفلتك عن حفظه ، وهذا يمكن الاحتراز منه غالباً فهو كالمنتهب وأما الغاصب فالأمر منه ظاهر ، وهو أولى بعدم القطع من المنتهب ، ولكن يسوغ كف عدوان هؤلاء بالضرب والنكال والسجن الطويل والعقوبة بأخذ المال .

الصفات التي يجب اعتبارها في السارق وتستوجب حد القطع :

١ - التكليف : بأن يكون السارق بالغاً عاقلاً ، فلا حد على مجنون ولا صغير إذا سرق لأنيهما غير مكلفين ، ولكن يؤدب الصغير إذا سرق ، ولا يشترط فيه الإسلام ، فإذا سرق الذمي أو المرتد فإنه يقطع ، كما أن المسلم يقطع إذا سرق من الذمي .

٢ - الاختيار : بأن يكون السارق مختاراً في سرقة ، فلو أكره على السرقة فلا يعد سارقاً ، لأن الإكراه يسلبه الاختيار ، وسلب الاختيار يسقط التكليف .

(٣) المختلس : هو من يخطف المال جهراً ويهرب .

(١) الخائن هو من يأخذ المال ويظهر النصح للمالك .

(٢) المنتهب : هو الذي يأخذ المال غصباً مع المجاهرة والاعتماد على القوة .

٣ - ألا يكون للسارق في الشيء المسروق شبهة^(١) ، فإن كانت له فيه شبهة فإنه لا يقطع ، ولهذا لا يقطع الأب ولا الأم بسرقة مال ابنهما ، لقول الرسول ﷺ « أنت ومالك لأبيك » وكذلك لا يقطع الابن بسرقة ماله أو مال أحدهما لأن الابن يتبسط في مال أبيه وأمه عادة ، ولا يقطع أحد من الأصول والفروع ، أى الآباء والأجداد والأبناء وأبناء الأبناء .

الصفات التى يجب اعتبارها فى المال المسروق :

أولاً : أن يكون مما يتمول ويملك ويحل بيعه وأخذ العوض عنه ، فلا قطع على من سرق الخمر والخنزير ، حتى لو كان المالك لهما ذمياً لأن الله حرم ملكيتهما والانتفاع بهما بالنسبة للمسلم وللذمى على السواء ، وكذلك لا قطع على سارق أدوات اللهو مثل العود والكمنج والمزمار ، لأنها آلات لا يجوز استعمالها عند كثير من أهل العلم ، فهى ليست مما يتمول ويتملك ويحل بيعه . وأما الذين يبيحون استعمالها فهم يتفقون مع من يحرمها فى عدم قطع يد سارقها لوجود شبهة ، والشبهات مسقطه للحدود .

ثانياً : أن يبلغ الشيء المسروق نصاباً ، فإن من العادة التسامح فى الشيء الحقير من الأموال . وذهب جمهور العلماء إلى أن القطع لا يكون إلا فى سرقة ربع دينار من الذهب ، أو ثلاثة دراهم من الفضة ، أو ما تساوى قيمته ذلك لما روى عن عائشة رضى الله عنها : أن الرسول ﷺ « كان يقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعداً » وفى رواية مرفوعاً « لا تقطع يد السارق إلا فى ربع دينار فصاعداً » .

عقوبة السرقة :

إذا ثبتت جريمة السرقة وجب إقامة الحد على السارق فتقطع يده اليمنى من مفصل الكف وهو الكوع لقوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ ولا يجوز العفو عنها من أحد . لا من المجنى عليه ولا من الحاكم . طالما وصلت إلى الإمام ، قال ﷺ : « تجافوا العقوبة بينكم ، فإذا انتهى بها إلى الإمام فلا عفا الله عنه إن عفا » فإذا سرق ثانياً تقطع يده اليسرى ثم إذا عاد إلى السرقة تقطع رجله اليمنى ثم إذا سرق يعزر ويحبس كما قال الإمام الشافعى وغيره . وتحسم يد السارق بعد القطع فتكوى بالنار أو تتخذ أى طريقة من الطرق حتى ينقطع الدم فلا يتعرض المقطوع للتلف والهلاك ، ومن التنكيل بالسارق والزجر لغيره أمر الشارع بتعليق يد السارق المقطوعة فى عنقه .

هذا حكم من أحكام الله تعالى شرعه وفرضه ، وهو أعلم بما يصلح به عباده ، ومن أصدق من الله قила ؟ لا أحد ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ لا أحد ﴿ قل أنتم أعلم أم الله ﴾^(٢) ؟ ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾^(٣) إن من أعظم نعم الله تعالى على عباده نعمة الأمن بأوسغ معانيه : الأمن على النفس والمال والعقل والعرض ، ومن ثم فقد حد الحدود ، والله تعالى فرائض فلا تضيعوها ، وحرمت فلا تنتهكوها ،

(١) أى وجه من وجوه الاستحقاق .

(٢) آية ٢٣٢ من سورة البقرة ، ٦٦ من سورة آل عمران .

(٣) آية ١٤٠ من سورة البقرة .

وحدود فلا تعتدوها وقد سكت سبحانه وتعالى عن أشياء رحمة بنا - من غير نسيان - فلا تسألوا عنها .
وليس هناك أى داع يدعو هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون إلى أن يشنوا هذه الحملة الشعواء على حدود الإسلام ، إنهم عندما يعارضون تطبيق الشريعة وينظرون إلى هذه الشريعة الغراء نظرة قاصرة ، إنهم بذلك يعضفون الهواء ، ويفتلون من الرمال حبالا ، فأى شرع بلغ ما بلغ شريعة الله من العدل والحق ؟ إنها تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، فالله جل جلاله جعل الحدود جواهر وزواجر ، وكفارات للذنوب وهى فى نفس الوقت فيها الدرس الواعى ، والنصح الرشيد لكل من تسول له نفسه الأمانة بالسوء أن يعكر صفو المجتمع ، ويخل بأمنه ، فيعتدى على حقوق الآخرين ، إذ تنتهى حرية المرء عندما تبدأ حرية غيره ، ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ﴾ ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿ ^(١) ولقد كان لحد السرقة النصيب الأوفى من الافتراء الذى شنه هؤلاء الذين هاجت عقارب الحقد فى قلوبهم ، وتحركت ثعابين البغضاء فى صدورهم ، فباسم الرحمة الزائفة ، والشفقة الكاذبة اعترضوا ، وباسم الضلال المبين والمدنية المزورة ، قلبوا للإسلام ظهر المجن ، ولبسوا له ثوب الثمر ، فنسوا حظا مما ذكروا به ، نسوا أن الذى شرع هذه الحدود هو أرحم الراحمين ، الذى قال : ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ﴾ ^(٢) بل هو أرأف بنا من الأم بولدها .

روى أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ عن الأمين جبريل عن رب العزة أنه قال « إن أردتم رحمتى فارحموا خلقى » ونسوا أن رسول الإسلام هو الذى قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن » .
« ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

وقد بلغ من جرأتهم أنهم قالوا زورا وبهتانا وظلما وعدوانا قالوا : إن الفاروق رضى الله عنه عطل حد السرقة فى عام الرمادة .. سبحانه هذا بهتان عظيم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ، فما كان لفاروق هذه الأمة أن يعطل حداً من حدود الله ، وهو الذى كان يقول لبطنه الذى تأثر من كثرة ما أكل بالزيت فكان يحدث أصواتا ، كان يقول لبطنه : « قرقراً أولاً تقرقر لن تذوق اللحم حتى يشبع أطفال المسلمين » . إنه لم يعطل حدا ، ولكنه رأى بثاقب فكره وصائب رأيه ، وعميق فهمه ونفاذ بصيرته ، كما اقتضت العدالة ذلك - رأى أن إقامة حد السرقة لم تستوف الشروط ، وإذا لم يستوف الحد شروطه بسبب شبهة المجاعة ، فمن الظلم أن يقام ، فهل يرضون لعمر أن يكون ظالما ، والحديدراً بالشبهة ، وعمر هو الذى قال عنه ابن عباس : أكثروا من ذكر عمر . فإنكم إذا ذكرتموه ذكرتم العدل ، وفى ذكر العدل ذكر لله تعالى يا أمير المؤمنين :

إن جاع فى شدة قوم شركتهمو	فى الجوع أو تنجلي عنهم غواشيها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته	فى الزهد منزلة سبحانه موليا
فمن يبارى أبا حفص وسيرته	أو من يحاول للفاروق تشبيها

يوم اشتت زوجة الحلوى فقال لها من أين لي ثمن الحلوى فأشريها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به أولى، فقومي لبيت المال رديها

إن إقامة الحدود جانب عظيم من جوانب الرحمة ، إذ كيف يعامل اللص ، وهو الذئب الذي يسطو
على الآمنين ؟ كيف يعامل بالإحسان والعطف والرحمة بمفهومها الحقيقي ؟ إن الرحمة لا بد أن تصاحبها
الحكمة ، لذا قد ختم الله تعالى بقوله تعالى « عزيز حكيم » والحكمة وضع الشيء في نصابه ، ومن
الحكمة أن تقص أنياب الذئب ومخالبه :

ووضع الندي في موضع السيف بالفتى مضر كوضع السيف في موضع الندي

جىء لأمر المؤمنين عمر رضى الله عنه ذات يوم بسارق ، فلما هم بقطع يده ، قالت له أم
السارق : اعف عنه يا أمير المؤمنين فهذه أول مرة ! قال لها العبقري الفذ : لو كانت أول مرة لستره الله ،
ولعل أمير المؤمنين قد تذكر قوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة
ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ ^(١) وقد صدق عمر عندما قال قوله لأُم السارق فقد ظهر بعد ذلك
واتضح أنه سرق ست عشرة مرة .

وبعد بيان الأحكام المتعلقة بحد السرقة بقي ها هنا كلمة عن ختام الآية بقوله تعالى : « والله عزيز
حكيم » فقد سمعها أعرابي من قارئ وقد ختمها بقوله « والله غفور رحيم » فقال له : ما هكذا نزلت :
قال له : أتخفظها أيها الأعرابي ؟ قال : لا . ولكنه تعالى عز فحكم فقطع ولو أنه غفر ، رحم ، فما قطع
فلما رجع إليها قارئها وجدها كما قرأها الأعرابي « والله عزيز حكيم » وقد قال أحدهم :

يد بخمس مئين عسجد وُدِيت ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض مالنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار

فرد عليه أحد الحكماء بهذا البيت :

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة البارئ
فسبحان صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة .

توبة السارق

قال ﷺ : السارق إذا تاب سبقت يده إلى الجنة ، فإذا لم يتب سبقت له النار . وسنعرض من
أحاديث الصادق المعصوم وسنته الحكيمة في تفسير قوله تعالى : ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن
الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم ﴾ أى من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه
وبينه ، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم . أو بدلها . عند الجمهور ، وقد روى الحافظ أبو الحسن

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق شملة فقال : ما إخاله سرق ! فقال السارق : بلى يا رسول الله ، قال : « اذهبوا به فاقطعوه ثم احسموه ثم أثبوني به » فقطع فأثب به فقال : « ثب إلى الله » فقال : تبت إلى الله ، فقال : « تاب الله عليك » .

وروى ابن ماجه بسنده : أن عمر بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني سرقت جملا لبنى فلان فطهرني ، فأرسل إليهم النبي ﷺ : فقالوا إنا افتقدنا جملا لنا ، فأمر به فقطعت يده وهو يقول : الحمد لله الذي طهرني منك ، أردت أن تدخلني جسد النار .

وعن عبد الله بن عمر وقال : سرقت امرأة حليا ، فجاء الذين سرقتهم فقالوا : يا رسول الله سرقتنا هذه المرأة ، فقال رسول الله ﷺ : « اقطعوا يدها اليمنى ، فقالت المرأة : هل من توبة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك » فأنزل الله عز وجل : ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم ﴾ .

وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت ، وحديثها ثابت في الصحيحين من رواية الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح . فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ، فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله . فأثب بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال : « أتشفع في حد من حدود الله عز وجل » فقال له أسامة : استغفر لي يا رسول الله فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاخطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : « أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها . قال عائشة : فحسنت توبتها بعد وتزوجت وكانت تأتي بعد ذلك ، فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ . وقد روى النسائي أن امرأة كانت تستعير الحلي للناس ثم تمسكه « أي عندها » فقال رسول الله ﷺ لتب هذه المرأة إلى الله وإلى رسوله وترد ما تأخذ على القوم ثم قال رسول الله ﷺ : « قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها » .

فما أعظم رحمة الله وما أحلمه بعباده ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا . إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ^(١) فيا إلهي إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغني فأنت القائل : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ ^(٢) وأنا شيء فلتسعني رحمتك . قوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ : جاءت هذه الآية عقب آية التوبة ، ليعلم الله عباده أنه ما تاب عليهم وما قبل توبتهم لحاجته إليهم ، بل كان ذلك كذلك بمحض منه وفضله ، فإنه سبحانه مالك الأمر كله : فالقضاء حكمته والوجود ملكه ، وكل الكائنات طوع وإرادته ، فهو المالك المتصرف يغفر لمن يشاء لحكمة يعلمها هو ، ويعذب من يشاء لحكمة يعلمها سبحانه . فقد تنزه فعله عن العيب لأنه الحكيم وليست المشيئة مبنية على

(٢) جزء من الآية ١٥٦ من سورة الاعراف .

(١) آية ٥٣ من سورة الزمر .

هوى أو غرض حاش لله . بل إنها مبنية على العدل المطلق ، والحق المطلق والصدق المطلق : قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(١) وقال جل شأنه في حق قوم موسى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾^(٢) وقال عز من قائل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيَرِهِ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيَرِهِ لِلْعُسْرَى ﴾^(٣) .

ولما ذكر سبحانه أن مالك السماوات والأرض المتصرف في شئون الكون ، ناسب ذلك أن يختم الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إذ يلزم أن يكون المتصرف قادراً فما بالك بالإله الأكبر الذي ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾^(٤) فسبحان من تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدس عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة وموجود لا من علة ، أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً .

من مساوىء اليهود

* يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّخَةِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

المفردات : ﴿ الحزن ﴾ : ألم يجده الإنسان عند فوت ما يحب ، و﴿ سارع إلى الشيء ﴾ : إذا أسرع إليه من خارج ليصل إليه ، و﴿ أسرع فيه ﴾ : إذا أسرع فيه وهو داخل فيه ، وهنا كان الكفار داخلين في ظرف الكفر ، محيطا بهم سرادقه ، و﴿ الفتنة ﴾ : الاختبار كما يفتن الذهب بالنار فيظهر

(٣) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .

(٤) جزء من الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(١) آية ١٧ من سورة فصلت .

(٢) جزء من الآية ٥ من سورة الصف .

مقدار ما فيه من الغش والزغل ، ﴿ السحت ﴾ : ما خبث من المكاسب وحرم فلزم عنه العار وقبح الذكر ، كضمن الكلب والخنزير والخمر والرشوة في الحكم . ﴿ والقسط ﴾ : العدل

خطاب من الله الكريم إلى نبيه الكريم بعنوان الرسالة ، والذي يقرأ خطاب الله لرسوله في القرآن يجد الإكرام والحفاوة ، فالله جلت قدرته وتعالى عظمته زاد محمداً ﷺ تكريماً وحباً فضلاً من لدنه عميماً : إذا نادى على نبي من أنبيائه ناداه باسمه فترى الخطاب الكريم إلى آدم : ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ ^(١) كذلك إلى غيره من الأنبياء : ﴿ يا نوح اهبط بسلام منا ﴾ ^(٢) و ﴿ يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ ^(٣) ﴿ يا موسى إني أنا ربك ﴾ ^(٤) ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ ^(٥) ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام ﴾ ^(٦) ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ ^(٧) ﴿ يا عيسى إني متوفيك ﴾ ^(٨) .

فإذا أراد سبحانه أن يخاطب حبيبه ومصطفاه ، مخاطبه بعنوان الرسالة : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ أو بعنوان النبوة : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ﴾ ^(٩) حتى في مقام الملاطفة الربانية : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ ^(١٠) . وفي مقام التشريع : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ ^(١١) . وإذا نادى على نسائه أضافهن إليه بعنوان النبوة ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾ ^(١٢) إنه التكريم ومن أحق بالتكريم منه ، نبي أعطاه الله شجاعة موسى ، وشفقة هارون ، وإقدام داود ، وعظمة سليمان ، وصبر أيوب ، وبساطة يحيى ، ورحمة عيسى .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

البدر دونك في حسن وفي شرف والبحر دونك في خير وفي كرم
أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له وأنت أحييت أجيالاً من العدم

إنه خاتم النبيين ورسول الله رب العالمين ﷺ وفي هذا النص الكريم تسليية له ﷺ لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴿ لا يكن في صدرك أى ضيق من أفعال هؤلاء الذين يسارعون في الكفر ، ولقد بلغ من قبائحهم : أنهم أضافوا إلى المسارعة في الكفر رذيلة من أخص الرذائل وسجية من أحط السجايا ، أضافوا النفاق ﴾ يقولون آمنا بأفواههم ﴿ والله جلت قدرته يحكم على ما في قلوبهم فيقول ﴿ ولم تؤمن قلوبهم ﴾ لقد حسبوا أن لهم ما يشاءون من القول ، ونسوا أن هناك إلهاً يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ ^(١٣) .

- | | | | |
|-----|---|------|---------------------------------------|
| (١) | جزء من الآية ٣٥ من سورة البقرة ، ومن الآية ١٩ من سورة الاعراف . | (٧) | جزء من الآية ١٢ من سورة مريم . |
| (٢) | جزء من الآية ٤٨ من سورة هود . | (٨) | جزء من الآية ٥٥ من سورة آل عمران . |
| (٣) | جزء من الآية ١٠٤ ، ١٠٥ من سورة الصافات . | (٩) | جزء الآية ٤٥ من سورة الأحزاب . |
| (٤) | جزء من الآية ١١ ، ١٢ من سورة طه . | (١٠) | جزء من الآية الأولى من سورة التحريم . |
| (٥) | جزء من الآية ٢٦ من سورة ص . | (١١) | جزء من الآية الأولى من سورة الطلاق . |
| (٦) | جزء من الآية ٧ من سورة مريم . | (١٢) | جزء من الآية ٣٢ من سورة الأحزاب . |
| | | (١٣) | الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة البقرة . |

إن النفاق مرض اجتماعى خطير ، والمنافقون هم الآكلون على كل الموائد ، إنهم عالة على المجتمع أوقات السراء، وسوس ينخر فى عظام الأمة حين الضراء ، والبأساء : قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : « لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران . أئى يغترون أم على يجترئون » فلا يحزنك ما يفعله هؤلاء المارقون ، واصبر واحتسب .

قوله تعالى : ﴿ ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ : هذا حديث عن اليهود بعد الحديث عن المنافقين . وهل اليهود والمنافقون إلا شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، لقد وصف الله تعالى المنافقين بأنهم إخوان اليهود : قال تعالى فى سورة الحشر : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً . وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ (١) .. والله سبحانه وتعالى يخبر هنا : أن من اليهود من يسمعون الكذب ويسمعون لقوم آخرين لم يأتوك ، فينقلون عنهم الحديث وهم كاذبون . كذلك من صفاتهم المتأصلة فيهم : أنهم يحرفون الكلم ويغيرونه من بعد مواضعه ، ومن صور هذا التحريف قولهم : ﴿ إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾ وبمعرفة سبب النزول يبدو المعنى جليا واضحا : أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر عن البراء بن عازب قال : « مر النبي ﷺ بيهودى محمدا مجلودا ، فدعاهم فقال : أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم . فدعا رجلا من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قال : اللهم لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، تجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا تعالوا فلنجتمع على شئ نقيم على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم واجندا مكان الرجم ، فقال النبي ﷺ : اللهم إني أول من أحيا أمرك إذا أماتوه وأمر به فرجم فأنزل الله ﷻ ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إلى قوله إن أوتيتم هذا فخذوه ﴾ (٢) .

وأخرج أحمد والبخارى ومسلم عن عمر قال : « إن اليهود أتوا النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال : ما تجدون فى كتابكم ؟ قالوا نسخم وجوههما ويخزيان ، قال : كذبتن إن فيها الرجم ﴾ فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ فجاءوا بالتوراة وجاءوا بقارئ لهم أعور يقال له ابن صوريا فقرا حتى إذا أتى إلى موضع منها وضع يده عليه ، فقليل له : ارفع يدك فرفع يده فإذا هى تلوح (أى آية الرجم) فقالوا : يا محمد إن فيها الرجم ، ولكننا كنا نتكاته بيننا ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، فلقد يجأ عليها (ينحنى) يقيها الحجارة بنفسه » .

وهكذا وصف الله هؤلاء المارقين بأنهم سماعون للكذب ، وهو ما كانوا يرددونه من الأباطيل ،

(١) آية ١١ من سورة الحشر .

(٢) أفاض القرطبي فى ذكر روايات عدة فى ذلك الشأن ج ٦ ص ١٧٦ ، ١٧٧ وما بعدها .

وإنكار ذكر النبوة المحمدية في التوراة ، كما أنهم سماعون لقوم آخرين ، وقد يكون المقصود بهؤلاء القوم الآخرين رؤساء اليهود ، وقد يكون المعنى أنهم يسمعون لهم ، أى يسمعون لما يقال في مجالس الرسول والمؤمنين ، لأجل أن يبلغوه إلى الذين لم يأتوا رسول الله .

ووصفهم الله تعالى أيضا بأنهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه أى يغيرون ما في التوراة من أحكام .

ثم جاءت جملة ﴿ يقولون إن أوتيم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾ جاءت مفسرة لقوله جل شأنه : ﴿ يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴾ ذلك لأنهم تأمروا فيما بينهم واتفقوا على أن يخفوا آية الرجم ، وقال بعضهم لبعض : إن أعطاكم محمد حكم الجلد فخذوه وإن لم يعطكم إياه فاحذروه أى احذروا أن تأخذوا الرجم ، وذلك كما تبين لنا في ذكر سبب النزول ، ثم عقب الله تعالى على مواقف هؤلاء بقوله ﴿ ومن يرد الله فتنه فلن تملك له من الله شيئا ﴾ فقد امتحن الله هؤلاء في دينهم ، فظهر كفرهم بخاتم الأنبياء ﷺ ، وتجلت الحقائق التي كانوا يثنون صدورهم عليها ، فهم سماعون للكذب ينقلون الأباطيل إلى رؤسائهم ، كما أن رؤسائهم يضلونهم عن سواء السبيل ، يحرفون كلام الله في التوراة يخفون أحكام الله التي جاء بها القرآن مؤيدا لما في التوراة ، فظهرت الفتنة ووضع الامتحان ، فسقطوا في الفتنة ، ومن كان شأنه كذلك فلن تملك له من الله شيئا ، ثم حكم عليهم مولانا بعد ذلك بقوله ﴿ أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ﴾ ذلك لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، قال تعالى : ﴿ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ (١) .

ما جزاء هؤلاء ؟ قال تعالى : ﴿ لهم في الدنيا خزي ﴾ وذلك بفضح تأمرهم وخداعهم قال تعالى : ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ (٢) . هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فقد قال تعالى : ﴿ ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ . فالجزاء من جنس العمل ، فهؤلاء لما عظمت جرائمهم ، عظم عذابهم واشتد .

ثم أضاف الله تعالى إلى الصفات السابقة ما يؤكد بعضها ويضيف جديدا إليها : قال تعالى : ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾ فأكد سماعهم للكذب والإرجاف بالشائعات المفروضة ، والأباطيل المجافية للحق ، وتوكيد هذه الصفة دليل قاطع على تأصلها فيهم ، وفي التعبير بصيغة المبالغة ﴿ سماعون ﴾ ما يدل على مدى إسرافهم في تلك الرذيلة ، بحيث أصبحت من الفحش بمكان .. ثم يصفهم تعالى بأنهم ﴿ أكالون للسحت ﴾ وهكذا بصيغة المبالغة أيضا . والسحت ما تنهى في الحرمة فهم المتعاملون بالربا ، الآكلون للرشي ، المجافون للحق . قال تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾ (٣) . قوله تعالى : ﴿ فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ﴾ أى إن جاءوك متحاكمين

(١) الآيات ٨ - ١٠ من سورة الليل .

(٢) من الآية ١٦٠ من سورة النساء .

(٣) من آية رقم ٩ من سورة البقرة .

إليك فأنت مخير بين الحكم بينهم ، والإعراض عنهم وتركهم إلى رؤسائهم ، وهذا التخيير خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة ، فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين الأجانب الذين هم في بلادهم وإن تحاكموا إليهم ، بل هم مخيرون يرجحون في كل حال ما يرونه من المصلحة .

وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا ، لأن من أخذت منه الجزية تجرى عليه أحكام الإسلام في البيوع والموارث وسائر العقود ، إلا في بيع الخمر والخنزير فإنهم يقرون عليه فيما بينهم دون المسلمين قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَعَرَّضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرَّكَ شَيْئًا ﴾ أى عند إعراضك عنهم فلا تخش منهم أحدا ، ولا تخف منهم ضرراً ، فقد تعهد الله تعالى بحفظك في قوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (١) . قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ هذا توجيه إلهي فيه البيان الشافي والجواب الوافي ، فالإسلام هو العدل والحق والقسط وحكم الله عادل مقسط ، مع الأحياء والأعداء ، فالعدل هو العدل لا يتجزأ ولا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ، شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) . قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوْلُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أَوْلَكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ : هذا تعجب من الله تعالى لحال هؤلاء الذين أنزل الله عليهم كتاباً فيه هدى ونور هو التوراة ، وفيها حكم الله واضح جلي وهم يعلمون ذلك علم اليقين ، ومع ذلك يحكمونك وبعد تحكيمهم لك وعلمهم بأنك الحق وحكمك الحق ، وأنت مصباح الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات ، مع علمهم بهذا كله يتولون معرضين عن حكم الله ويحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

إن الله تعالى حكم عليهم بقوله : ﴿ وَمَا أَوْلَكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ إذ كيف يتأتى الإيمان مع الإعراض والتولى عن حكم الله قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحْكُمَكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) فهذا هو منطق الإيمان الصحيح : تحكيم يتبعه عدم الحرج أى حرج مما قضى الله ورسوله ، يصحبه تسليم مطلق وتفويض وإذعان ورضا ..

الحاكمية لله وحده

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُونِ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَايَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

(١) جزء من الآية ٦٧ من سورة المائدة وسيأتى تفسيرها وذكر أسبابها ولها .

(٢) الآية ٨ من سورة المائدة وقد سبق تفسيرها . (٣) الآية ٦٥ من سورة النساء .

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ
وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
التَّورَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٥﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٤٦﴾

المفردات : ﴿ التوراة ﴾ : الكتاب الذى أنزل على موسى . ﴿ والذين هادوا ﴾ : هم
اليهود . ﴿ الربانيون ﴾ : هم المنسوبون إلى الرب بمعنى الخالق المدبر لأمر الملك ، و﴿ الأحبار ﴾ :
واحدهم حبر وهو العالم . ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ : أى بما طلب إليهم حفظه منه ،
و﴿ شهداء ﴾ : أى رقباء على الكتاب وعلى من يريد العبث به : ﴿ قفاه ﴾ : به تقفية : جعله يقفو أثره
كما قال : ﴿ وقفينا من بعده بالرسول ﴾ ^(١) . و﴿ الفاسقون ﴾ : أى الخارجون من حظيرة الدين
المتجاوزون لأحكامه وآدابه .

قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ : إخبار منه جل شأنه بأن التوراة كتاب
سماوى أنزله العليم الحكيم على موسى الكليم ، فما حكم به بنى الله محمد ﷺ فى تلك الحادثة التى وقعت
بين اليهود ، جاء موافقا لما حكم الله به فى التوراة ، فلا مجال لهؤلاء الذين حاولوا أن يقفوا موقف المساومة
من شرع الله المنزل على خاتم الأنبياء وعلى كليم الله موسى : يقولون : ﴿ إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم
تؤتوه فاحذروا ﴾ ^(٢) وقد حكم رسول الله ﷺ حكماً صادقا ، حكم به الله تعالى فى كتاب التوراة . قوله
تعالى : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ : فى هذا النص إشارة صريحة بأن النبيين دينهم
واحد هو الإسلام ، وليس هناك أى اختلاف بينهم فى العقيدة . عملوا فى معسكر واحد هو معسكر
التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول : لا إله إلا الله . فهؤلاء النبيون الذين كلفوا بأحكام التوراة من لدن
موسى يحكمون بما فيها للذين هادوا (أى اليهود) ، كذلك يحكم بها الربانيون والأحبار . والمراد بالربانيين
العلماء العباد ، وبالأحبار العلماء الذين استحفظهم الله كتابه واستودعهم إياه ، وطلب منهم حفظه ،
وكانوا عليه شهداء شهادة صدق بأنه من قبل الله . قوله تعالى : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾ :
بمصدق ذلك قوله جل شأنه : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ﴾ ^(٣) .
وقوله جل شأنه : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ^(٤) .. فمن تصدى للحكم بما أنزل الله والدعوة إلى
الله كان واجبا عليه أن يخشى الله وحده ، فمن أرضى الله بإسقاط الناس كفاه الله ما بين الناس ، ومن

(٣) جزء من الآية ٣٩ من سورة الأحزاب .

(١) جزء من الآية ٨٧ من سورة البقرة .

(٤) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر .

(٢) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة وقد سبق تفسيرها .

أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ : المراد بالثمن القليل هو الدنيا والسلطان والجاه ، وقد كان اليهود ينكرون رسالة رسول الله ﷺ ويححدون ما جاء بشأنه في التوراة حسداً منهم له ، وبغيا وظلماً وعدواناً ، يبتغون من وراء ذلك الرئاسة والزعامة وحب الدنيا ، والدنيا مهما أعطت وتزينت فهي ثمن قليل تافه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ : هذا النص الكريم اقتضت الأمانة العلمية أن نوضح أقوال العلماء فيه : فماذا قالوا في الحكم بغير ما أنزل الله ؟

(١) قال عبد العزيز بن يحيى الكنائى : قوله ﴿ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ صيغة عموم ، فقوله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ معناه : من أتى بضد حكم الله تعالى في كل ما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، قال : وهذا حق ، لأن الكافر هو الذى أتى بضد حكم الله تعالى في كل ما أنزل الله ، فالمراد ترك الحكم بجميع ما أنزل الله ، قال : ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام ، أما الفاسق فإن لم يأت بضد حكم الله إلا في القليل وهو العمل ، أما في الاعتقاد والإقرار فهو موافق ، وقال أيضاً : (ومن لم يحكم بما أنزل الله) فهو كافر ، فأما من حكم بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل في هذه الآية . ومثل هذه ما قيل : إن المراد بعموم النفي بحمل (ما) على الجنس ، ولا شك أن من لم يحكم بشيء مما أنزل الله تعالى لا يكون مصدقاً ولا نزاع في كفره .

(٢) وقال ابن الأنبارى : يجوز أن يكون المعنى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ فقد فعل فعلاً يضاهى أفعال الكفار^(١) ويشبه من أجل ذلك الكافرين ، وهو عدول عن الظاهر .

(٣) ومنهم من تأول الآية على الحكم بمخالفة النص تعمداً من غير جهل به ولا خطأ في التأويل ، حكاه البغوى عن العلماء عموماً .

(٤) ومنهم من تأول على أن ذلك يختلف باختلاف الحاكم ، فإن حكم بما عنده على أنه من عند الله فهو تبديل له يوجب الكفر ، وإن حكم به هوى ومعصية فهو ذنب تدركه المغفرة ، على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين .

(٥) قال ابن القيم : والصحيح أن الحكم بما أنزل الله يتناول الكافرين الأكبر والأصغر بحسب حالة الحاكم ، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في الواقعة مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر ، وإن اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه مع يقينه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر ، وإن جهله وأخطأه فهذا مخطئ له حكم . وروى عنه أيضاً : ليس بالكفر الذى يذهبون إليه : رواه الحاكم في مستدركه وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ... يؤيد ذلك ما أخرجه ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى في سننه عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : في الكفر الواقع في أولى الثلاث : إنه ليس بالكفر الذى تذهبون إليه ...

(١) وقد روى هذا المعنى عن ابن عباس : القرطبى ج ٦ ص ١٩٠ .

إنه ليس كفرا ينقل عن الملة ، كفرا دون كفر . وقال ابن طاوس : وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله .

(٦) وقال عطاء : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق رواه ابن جرير . وعن علي بن الحسين قال : كفر ليس ككفر الشرك ، وظلم ليس كظلم الشرك ، وفسق ليس كفسق الشرك .. فكأنهم حملوا الآية على كفر النعمة لا على كفر الدين^(١) ..

(٧) وقيل : فيه إضمار ، أى من لم يحكم بما أنزل الله رداً للقرآن وجحداً لقول الرسول ﷺ فهو كافر ، قال ابن عباس ومجاهد : فالآية عامة على هذا : وقال ابن مسعود والحسن : هى عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار ، أى معتقداً ذلك مستحلاً له ، فأما من يفعل ذلك وهو معتقد أنه يرتكب محرماً فهو من فساق المسلمين ، وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له . وقال عكرمة : قوله تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ إنما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه ، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله ، إلا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله تعالى ، ولكنه تارك له ، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية . وقال ابن عباس : ومن جحد ما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق رواه ابن جرير ... وعلى هذا فالآية متروكة الظاهر ، فإن الحكم وإن كان شاملاً لفعل القلب والجوارح . لكنه المراد به هنا عمل القلب وهو التصديق ، ولا نزاع فى كفر من لم يصدق بما أنزل الله تعالى ، وهذا رأى وهو أن المراد بالآية من جحد حكم الله المنزل فى الكتاب هو اختيار الإمامين الجليلين ابن جرير الطبرى وفخر الدين الرازى ، وإن لم يرتضه ابن القيم حيث جعله تأويلاً مرجوحاً .

(٨) إن هذه الآية ونظيرتها نزلت ثلاثتها فى الكفار ممن بدل حكم الله كما جاء فى صحيح مسلم من حديث البراء ، فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة ، وقال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس وأبو مجلز وأبو رجاء العطارى وعكرمة وعبيد الله والحسن البصرى وغيرهم ، نزلت فى أهل الكتاب ، وأخرج ابن جرير عن أبى صالح قال : الثلاث آيات التى فى المائدة ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ الآية ، ليس فى أهل الإسلام منها شئ ، هى فى الكفار ، وأخرج ابن حاتم عن عكرمة ، وابن جرير عن الضحاك نحو ذلك .

ولعل وصفهم بالأوصاف الثلاث باعتبارات مختلفة : فلإنكارهم ذلك وصفوا بالكافرين ، ولوضعهم الحكم فى غير موضعه وصفوا بالظالمين ، ولخروجهم عن الحق وصفوا بالفاسقين .

أو أنهم وصفوا بها باعتبار أطوارهم وأحوالهم فى الامتناع عن الحكم ، فتارة كانوا على حال تقتضى الكفر وتارة على أخرى تقتضى الظلم والفسق .

(٩) ويرى بعض المفسرين أنها نزلت فى اليهود خاصة فتكون مختصة بهم ، وبينه بعضهم بقوله :

(١) وهو كفر النعمة عند الاباضية : انظرها من ص ١٩٠ من تفسير القرطبى .

(ومن لم يحكم) من هؤلاء الذين سبق ذكرهم (بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . قال عبد الرزاق عن إبراهيم ولعله النخعي : نزلت الآيات في بنى اسرائيل . رواه ابن جرير . وقال ابن عباس : في خصوص بن قريظة والنضير ... وأخرج سعيد بن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إنما أنزل الله : (فأولئك هم الكافرون) الظالمون الفاسقون ، في اليهود خاصة . وقال الشعبي : هي في اليهود خاصة ، واختاره النحاس^(١) قال : ويدل على ذلك ثلاثة أشياء منها : أن اليهود قد ذكروا قبل هذا في قوله (للذين هادوا) فعاد الضمير عليهم ، ومنها أن سياق الكلام يدل على ذلك ... ألا ترى أن بعدها (وكتبنا عليهم) فهذا الضمير لليهود بالإجماع وأيضا فإن اليهود هم الذين أنكروا الرجم والقصاص . فإن قال قائل : (مَنْ) إذا كانت للمجازاة فهي عامة ، إلا أن يقع دليل على تخصيصها ، قيل له : (مَنْ) هنا بمعنى الذي ، مع ما ذكرناه من الأدلة ، والتقدير : واليهود الذين لم يحكموا بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ... واختار هذا الرأي القرطبي^(٢) والطبري . قال الطبري : الأولى في كفار أهل الكتاب ، لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات نزلت فيهم وهم المعنيون بها ، وهذه الآيات سياق الخبر عنهم ، فكونها خبرا عنهم أولى .

(١٠) وقال آخرون : بل نزلت هذه الآيات في أهل الكتاب والمراد بها جميع الناس ، مسلموهم وكفارهم ، ونسب هذا القول إلى عمر وعلى رضي الله عنهما ، وهو قول إبراهيم والحسن ومسروق . (١١) وقال بعضهم : عني بالكافرين أهل الإسلام ، وبالظالمين اليهود ، وبالفاسقين النصارى ، وهو اختيار أبي بكر بن العربي قال : لأنه ظاهر الآيات .. وفي أحكام الجصاص (٤ - ٩٣) : الأولى بالمسلمين والثانية لليهود والثالثة للنصارى .

وعند الشعبي قال : نزلت (الكافرون) في المسلمين ، و (الظالمون) في اليهود ، و (الفاسقون) في النصارى وعنه قال : هذه الآيات التي في المائدة ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ فينا أهل الإسلام .. ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ قال في اليهود .. ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ قال في النصارى .. قال الألوس بعد كلام الشعبي : ويلزم على هذا أن يكون المؤمنون أسوأ حالا من اليهود والنصارى إلا أنه قيل : إن الكفر إذا نسب إلى المؤمنين حمل على التشديد والتغليظ ، والكافر إذا وصف بالفسق والظلم أشعر بعتوه وتمرده فيه ، وكلام حذيفة يمكن أن يؤيد هذا الرأي .

(١٢) وقال الخوارج (وهم يحتجون بهذه الآية) : إنها تقضى في أن كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ، وكل من أذنّب فقد حكم بغير ما أنزل الله فوجب أن يكون كافرا كذلك احتج الخوارج بهذه الآية على أن الفاسق كافر غير مؤمن ، ووجه الاستدلال بها أن كلمة (مَنْ) فيها عامة شاملة لكل من لم يحكم بما أنزل الله ، فيدخل الفاسق المصدق أيضا ، لأنه غير حاكم وعامل بما أنزل الله .

(١) القرطبي : ج ٦ ص ١٩٠ .

(٢) جزء ٦ ص ١٩٠ ، ١٩١ .

- والحق الذى لا مرأى فيه فى هذه الآية : وهو الرأى المؤيد المنصور : أن الآية عامة فى أهل الكتاب وغيرهم شاملة لليهود والنصارى والمسلمين وأن الحاكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ، وأن الكفر فيها هو الكفر المخرج عن الملة والأدلة والآثار الآتية تثبت ذلك وتوضحه :
- أن هذه الآية وإن نزلت فى اليهود حين أنكر واحد الرجم إلا أن القاعدة تقول : العبرة لعموم اللفظ لا بخصوص السبب .
- قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم ﴾ كلام أدخل فيه لفظ ﴿ من ﴾ فى معرض الشرط فيكون للعموم ، فهو يفيد أن هذا غير مختص بطائفة معينة بل كل من ولى الحكم يشمله ذلك ..
- إذا حكم على أهل الكتابين بالكفر والفسق والظلم إذا لم يحكموا بالتوراة والإنجيل فنحن المسلمين من باب أولى إذا لم نحكم بالقرآن ، على أن الصحيح أن الآيات تشمل أهل الكتاب وغيرهم .
- أخرج الحاكم وصححه وعبد الرزاق وابن جرير عن حذيفة أن الآيات الثلاث ذكرت عنده فقال رجل إن هذا فى بنى إسرائيل ، فقال حذيفة : نعم الأخوة لكم بنى إسرائيل ، إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة ، كلا والله لتسلكن طريقهم قد الشراك^(١) .
- ويروى أن حذيفة سئل عن هذه الآيات : أمى فى بنى إسرائيل ؟ قال : هى فيهم ، ولتسلكن سبيلهم حذو النعل بالنعل^(٢) .
- قال ابن جرير عن علقمة ومسروق أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة فقال : من السحت ، فقالا : وفى الحكم ؟ قال : ذلك الكفر ، ثم تلا ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ونقل مثل ذلك عن على بن أبى طالب كما أخرجه عن ابن جميلة .
- وقال السدى : يقول الله تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ فتركه عمداً أوجاراهم وهو يعلم فهو من الكافرين .
- قال القشيري : عزى إلى الحسن والسدى أن من ارتشى وحكم بغير حكم الله فهو كافر .
- وعن الحسن : نزلت فى أهل الكتاب ، وهى علينا واجبة .
- وعن عبد الرزاق : عن إبراهيم - ولعله النخعي - نزلت هذه الآيات فى بنى إسرائيل ، ورضى الله لهذه الأمة بها .
- قال الألويس : والوجه أن هذه كالأخطاب عام لليهود وغيرهم وهو مخرج مخرج التغليظ ، واختلاف الأوصاف لاختلاف العبارات ، والمراد من الآخرين فيها الكفر أيضاً عند بعض المحققين وذلك بحملها على الفسق والظلم الكاملين .
- قال أبو السعود (ومن لم يحكم بما أنزل الله) كائناً من كان دون المخاطبين خاصة ، فإنهم مندرجون فيه اندراجاً أولياً ، إن لم يحكم بذلك مستهيناً به منكرأ له كما يقتضيه ما فعلوه عن تحريف آيات الله تعالى اقتضاء بينا ﴿ فأولئك هم الكافرون ﴾ لأستهانتهم به .

(١) القرطبي ج ٦ ص ١٩٠ . (٢) الشراك هو سير النعل الذى يمسك بالقدم وقد فسرته الرواية التى بعدها .

والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير ، وتحذير من الإضلال به أشد تحذير ... حيث علق الحكم فيه بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى ، فكيف وقد انضم إليه الحكم بخلافه ، لاسيما مع مباشرة ما نُهوا عنه من تحريفه ووضع غيره موضعه ، وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا .

- ويجب على الرأى القائل : ليس مجرد عدم الحكم بما أنزل الله يكون كفرا ، فإن الكفر معناه الجحود والإنكار ، ويجب عنه بأن الآية لم تقل « ومن لم يعتقد بما أنزل الله » . وقد رد هذا الرأى ابن القيم وأبطله إذ قال : فإن نفس جحوده كفر ، سواء أحكم أو لم يحكم .

- وحكى البغوى عن العلماء عموما أن الكفر عند الحكم بمخالفة النص تعمدا من غير جهل به ولا خطأ في التأويل .

- ويمكن أن يجاب عن الرأى القائل : كفر دون كفر ، بما قاله الرازى : وهو ضعيف ، لأن لفظ الكفر إذا أطلق انصرف إلى الكفر فى الدين بأنه خلاف ظاهر اللفظ فلا يصار إليه .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَفْسٌ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذْنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ : هذا منطق العدالة الإلهية والله هو الحكم العدل ، لا فرق عنده بين غنى وفقير ولا رفيع ووضيع ، ولا صغير وكبير ، ولا أمير وخفير ، فالكل أمام حكمه سواء . ولما كان الظلم فاشيا فى بنى إسرائيل أوجب الله عليهم أن يقوموا لله بالقسط فى تنفيذ أحكامه ، كما شرع لهم المساواة فى أخذ الحقوق ، وألزمهم بهذه الأحكام إلزاما لا يقبل نقدا ولا تغييرا . فإذا كان الله قد خاطب الجماعة المؤمنة من أمة محمد ﷺ بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدْوٍ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(١) .. إذا كان الله قد خاطب الأمة بهذا الخطاب وعبر بالقصاص لأنه لفظ القصاص ينبى عن المساواة ، فإنه جلت قدرته كتب على بنى إسرائيل فى التوراة القصاص فى النفس وما دونها من الأعضاء والجروح ، وفى هذا تفصيل وفضل بيان لأمة محمد ﷺ إذ شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد ناسخ ، وقد بدأت الآية بالقصاص فى النفس إذ بها الحياة وبفقدتها الموت ، وانتقل إلى العين إذ هى عضو الرؤية وبالرؤية تتجلى العظمة الإلهية فى الكون علوية وسفلية : قال تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾^(٢) . وانتقل من العين إلى الأنف لأنه عضو الجمال فى الوجه ، لذا لما أراد الله تعالى فى سياق الذم أن يذكر ذلك الكافر العنيد قال : ﴿ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سَنَسْمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴾^(٣) فشبه أنفه بأنف الفيل .

(١) الايتان ١٧٨ ، ١٧٩ من سورة البقرة . (٢) الايتان ٢ ، ٣ من سورة الملك . (٣) الايتان ١٥ ، ١٦ من سورة (ن) .

ثم انتقل بعد ذلك إلى الأذن وقد أودع الله فيها سر السمع ، والسمع نعمة عظيمة ومنفذ من منافذ المعرفة ، لذا في مجال المعرفة يقدم السمع على البصر : قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) ... ثم ينتقل النص الكريم إلى السن ، وللسن وظيفة صوتية وجمالية وهضمية .

وبعد ذلك تأتي الجروح وهي مختلفة باختلاف مواقعها ، لذا وجبت الدقة في تنفيذ الحكم بشأنها ، ومن ثم فقد جاءت مقترنة بلفظ القصاص حتى تكون المساواة فيها مرعية ومأخوذة في الاعتبار .

وبعد الحكم بالقصاص يفتح الله تعالى باب رحمته ، فيرغب ويدعو إلى العفو ، فهو الذي شرع القصاص ، وهو سبحانه الذي رغب في العفو ، وفي القرآن الكريم آيات تصف المؤمنين بالقصاص مرة والعفو أخرى . فتقرأ قوله تعالى في القصاص : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (٢) ونقرأ في العفو : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (٣) ونقرأ في القصاص : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ (٤) ونقرأ في العفو : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٥) . ونقرأ في القصاص : ﴿ وَلَمَنْ انتَصِرْ بَعْدَ ظَلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (٦) . ونقرأ في العفو : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٧) . ونقرأ في القصاص : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ (٨) . ونقرأ في العفو : ﴿ فَمَنْ عَفَى لَه مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٩) ونقرأ في القصاص هنا : ﴿ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ . ونقرأ في العفو : ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَه ﴾ أي فمن تصدق بالعفو وعفا عن الجاني ، فذلك العفو كفارة لذنوب من عفا وهو المجنى عليه .

وفي هذا النص الكريم أحكام إليك بيانها :

- استدلل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكى مقررًا ولم ينسخ كما هو المشهور عند الجمهور .

- احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة ، وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي وغيره أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم « أن الرجل يقتل بالمرأة » ، وفي الحديث الآخر « المسلمون تتكافأ دماؤهم » .

- إذا ثبتت مشروعية القصاص بهذا النص فإن العفو وارد : عن أنس بن مالك أن الربيع عمة أنس كسرت ثنية جارية ، فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا : فأتوا رسول الله ﷺ فقال : « القصاص » فقال أخوها أنس بن النضر يا رسول الله تكسر ثنية فلانة : قال فرضي القوم وعفوا وتركوا القصاص فقال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » . أخرجاه في الصحيحين .

- | | |
|--|---------------------------------------|
| (١) الآية ٧٨ من سورة النمل . | (٦) آية ٤١ من سورة الشورى . |
| (٢) الآية ٣٨ من سورة الشورى . | (٧) آية ٤٣ من سورة الشورى . |
| (٣) جزء من الآية ٣٧ من سورة الشورى . | (٨) جزء من الآية ١٧٨ من سورة البقرة . |
| (٤) (٥) أجزاء من الآية ٤٠ من سورة الشورى . | (٩) جزء من الآية ١٧٨ من سورة البقرة . |

- قوله تعالى : ﴿ والجروح قصاص ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، قال تقتل النفس بالنفس ، وتفقد العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح ، فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونسأؤهم ، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس ، ويستوى فيه العبيد رجالهم ونسأؤهم فيها بينهم ، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس ، (رواه ابن جرير وابن أبى حاتم) .

- الجراح تكون تارة في مفصل فيجب فيه القصاص بالإجماع كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك ، وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم فقال مالك رحمه الله فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها لأنه مخوف خطر ، وقال أبو حنيفة وصاحبه لا يجب القصاص في شيء من العظام إلا في السن .

- لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجنى عليه ، فإن اقتص من قبل الاندمال ثم زاد جرحه فلا شيء له ، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد : أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته فجاء إلى النبي ﷺ فقال : أقدنى . (أى اقتص لى) فقال : حتى تبرأ ، ثم جاء إليه فقال : أقدنى فأقاده ، فقال : يا رسول الله : عرجت فقال : « قد نهيتك فعصيتنى فأبعدك الله وبطل عرجك » ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه .

- لو اقتص المجنى عليه من الجاني فمات من القصاص فلا شيء عليه عندما مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم ، وقال أبو حنيفة تجب الدية في مال المقتص ، وقال ابن مسعود وإبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة وعثمان البستي يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة ويجب الباقي في ماله .

- قوله تعالى : ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ : قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : من عفا عنه وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب . وقال الهيثم بن الغريان النخعي : رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية فسأله عن قوله الله (فمن تصدق به كفارة له) قال يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به .

أما تفسير النبي ﷺ لتلك الآية فهو القول الفصل حيث قال صلوات ربي وسلامه عليه عنها : « هو الذى تكسر سنه أو تقطع يده أو يقط الشيء منه أو يجرح فى بدنه فيعفو عن ذلك » . قال : فيحط عنه قدر خطاياهم فإن كان ربع الدية فربع خطاياهم ، وإن كان الثلث فثلث خطاياهم ، وإن كانت الدية حطت عند خطاياهم كذلك » ... قال ابن جرير : دفع رجل من قریش رجلاً من الأنصار فاندقت ثنيته ، فرفعه الأنصارى إلى معاوية ، فلما ألح عليه الرجل قال : شأنك وصاحبك ، قال : وأبو الدرداء عند معاوية ، فقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يصاب بشيء من جسده فيهه إلا رفعه الله به درجة وحوط عنه به خطيئة » فقال الأنصارى : أنت سمعته من رسول الله ﷺ فقال : سمعته أذنأى ووعاه قلبى ، فخلى سبيل القرشى . وقال ﷺ « من تصدق بدم

فما دونه فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت .

قوله تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ : جاء ذلك النص الكريم ختاماً لتلك الآية لأن سياقها يدل على العدالة والمساواة ، والعدل وضع الشيء في موضعه ، فمن وضعه في غير موضعه فقد جافى العدالة ، فأصبح من الظالمين ، فمن لم يحكم بما أمر الله بالعدل فهو ظالم متجاوز لحدود الله ، والظلم مرتعه وخيم ، كما أنه ظلمات يوم القيامة ، والعدل أساس الملك . ودولة الباطل ساعة ، ودول الحق باقية حتى قيام الساعة : قال تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ ^(١) . وقال ﷺ : إن الله لا يعجل كمجلة أحدكم إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته اقرأوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾ ^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ : هذا إخبار من الله تعالى بإرسال عيسى عليه السلام وأن قد قفى به على آثار أنبياء بنى إسرائيل ، أى أتبع رسالته برسالتهم ، ثم أخبر سبحانه أن المسيح بعث مصدقا ومؤمنا بالتوراة التى سبقتة ، وأنه جل جلاله قد آتاه الإنجيل فيه هدى يهدى الحائرين إلى سبيل الرشاد ، ونور يخرج الضالين من الظلمات إلى طريق الله رب العالمين ..

وكما أن عيسى جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة عاملا بأحكامه ، فقد جاء الإنجيل مصدقا لأحكام التوراة مؤيدا لها ، كما جاء هدى وموعظة للمتقين ، وقد بعث الأنبياء فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ، جاء سابقهم ليبشر بلاحقهم ، كما جاء اللاحق مكملا للسابق ، فهم دائما فى حركة بناء لا هدم فيها ، فهم دائما يتابعون الترقى وليسوا فى حاجة إلى أن يقاوموا التدى . قال سيدهم وخاتمهم ﷺ : « مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثلى رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويقولون : هلا وضعت تلك اللبنة ؟ فأنا تلکم اللبنة وأنا خاتم النبیین .

وإذا كانت التوراة قد اشتملت على الأحكام فإن الإنجيل قد اشتمل على الوصايا الروحية التى تخفف من غلواء اليهود وترقق من قسوة قلوبهم ، كما أحل الإنجيل بعض ما حرم الله على اليهود فى التوراة . وقد حكم الله تعالى للتوراة بالهدى والنور فقال : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ فقد حكم تعالى أيضا للإنجيل بالهدى والنور فقال ﴿ وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ﴾ . وكما أوجب على أهل التوراة أن يحكموا بما فيها كذلك أوجب على أهل الإنجيل أن يحكموا بما فيه قال سبحانه : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ فإن هم تجاوزوا ذلك فقد خرجوا على أحكام الله فجزاؤهم أن يحكم عليهم بالفسق قال تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

(١) الآية ١١٧ من سورة هود .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة هود .

وجوب الحكم بما أنزل الله تعالى

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتَانَكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

المفردات : ﴿ مهيمنا ﴾ : رقيباً وحافظاً لما تقدمه من الكتب وشاهداً عليه .

﴿ شرعة ﴾ : الشرعة في اللغة الطريق الذي يتوصل به إلى الماء ، والطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى النجاة ، وفي لسان الشرع : ما شرعه الله لعباده من الدين وأحكامه . ﴿ ومنهاجا ﴾ : طريقاً مستمرا واضحا . ﴿ فاستبقوا ﴾ : تسابقوا وسارعوا إلى الطاعات . ﴿ أن يفتنوك ﴾ : أى يميلوا بك من الحق إلى الباطل .

المناسبة :

فيما مضى تكلم القرآن عن التوراة والإنجيل ، وما فيهما من نور وهدى وموعظة للمتقين أما القرآن الكريم والدستور المبين ، الذى نزل على الرسول الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين فهذا هو ذا .

قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ : المقصود بالكتاب هنا القرآن الكريم ، وإنما عبر عنه بالكتاب لأنه أجلى من الشمس فى ضحاها ، وأعظم وضوحاً من القمر إذا تلاها ، وأشد ظهوراً من النهار إذا جلاها ، فمن أعرض عما فيه تخبط فى ظلمة الليل إذا يغشاها .

وفى أسلوب الخطاب ﴿ إليك ﴾ تشريف لصاحب الرسالة العصماء ، وقد وصف الله تعالى القرآن فى هذه الآية بثلاث صفات : ﴿ بالحق ﴾ ﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾ ﴿ ومهيمنا عليه ﴾ .

أما كونه بالحق : فإنه تنزيل من حكيم حميد ، وبأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ ^(١) وأما كونه مصدقا لما بين يديه من الكتب السابقة ، فذلك لأن التوراة

والإنجيل منزلان أيضا من قبل الله جلت قدرته وعظمت حكمته : قال تعالى لرسوله ومصطفاه : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجَنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَهْجُرَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾^(١) .

ثم وصف الله القرآن بكونه مهيمنا على الكتب السابقة ، أى شاملاً وكافياً ورقيباً : قال عمر ذات يوم : يا رسول الله إنا نسمع من اليهود أحاديث تعجبنا أفنكتب بعضها ؟ قال الصادق المعصوم : أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ أى متحIRON لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى . قوله تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ : هذا تفريغ وترتيب على ما مضى ، لما ثبت أن الكتاب نزل بالحق ، ومصداقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنا عليه ، وجب الحكم بما فيه : قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا . وَإِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ﴾^(٢) . فالقرآن روح يحيى الموات ، ونور يبدد غياهب الظلمات ، قال على : يا رسول الله ما المخرج من الفتن ؟ قال الصادق المعصوم : ﴿ عَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴾ ، وقال ﷺ ﴿ كَفَى بِقَوْمٍ ضَلَالَةً أَنْ يَرْغَبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيهِمْ إِلَيْهِمْ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ غَيْرِهِ إِلَى غَيْرِهِمْ ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ : هذا تصريح فيه نهى عن اتباع الأهواء ، والهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر : قال تعالى لنبيه داود : ﴿ يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾^(٤) وهوى النفس قد أعيا الطبيب المداوى ، لذلك قص علينا القرآن الكريم قصة بلعام بن باعورا أحد أحبار بنى إسرائيل فقال : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٥) وكيف يتبع الهوى من جاءه الحق ؟ وهل الإيمان إلا اتباع الحق : قال ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) . قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا ﴾ : عقيدة الأنبياء كلهم واحدة قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾^(٦) فكلهم دعا إلى وحدانية الألوهية والربوبية : قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي

(١) الآيات ٢٩ - ٣٠ من سورة الاحقاف .

(٢) الايتان الاخيرتان من سورة الشورى .

(٣) الآية ٥١ من سورة العنكبوت .

(٤) الآية ٢٦ من سورة (ص) .

(٥) الايتان ١٧٥ ، ١٧٦ من سورة الاعراف .

(٦) الآية ٢٥ من سورة الانبياء .

كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴿١﴾ . قال ﷺ : (نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد) .

أما الشرائع والشعائر فقد تختلف في الأوامر والنواهي حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية فيما يصلح أحوال العباد ، فلا تبايع موسى شرعة ومنهاج ، كذلك أتباع المسيح ، تنتهى هذه الشرائع ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، فقد جاءت رسالته خاتمة لما سبقها مهيمنة على كل الرسالات عالمية : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾ (٢) . وقال سبحانه : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ (٣) . ففى القرآن نبأ من قبلنا ، وخبر من بعدنا وحكم ما بيننا ، وهو بالفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم ، وهو الهادى إلى صراط مستقيم ، لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشd فآمنا به ولن نشتك بربنا أحدا ﴾ (٤) من علم علمه سبق ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم . قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ : فمشيئة الله سبحانه صالحة أن يجمعكم على كتاب واحد ونبي واحد ، ولكن اقتضت الحكمة العليا أن تتعدد الأنبياء والشرائع ، ليلبونا أينما أحسن عملا ، وليبين الذين يطيعون والذين لا يمتثلون الأمر .

قوله جل شأنه : ﴿ فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ : هذا أمر من الله جلت قدرته ، يريد به سبحانه أن يوجه عباده إلى ما يصلحهم دنيا وأخرى ، وذلك باستباقهم إلى الخيرات والمسارة إليها والتنافس فيها ، وأول ما يجب الاستباق إليه الإيمان بنبوة سيدنا محمد ﷺ فهو خاتم الأنبياء الذى أمرنا أن نؤمن بكل الأنبياء : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (٥) . واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل ﴿ إلى الله مرجعكم جميعا ﴾ وهناك سينبئكم الله بما كنتم فيه تختلفون ﴿ قل أنتم أعلم أم الله ﴾ (٦) والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿ (٧) .

قوله تعالى : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾ : هذا تأكيد بوجوب الحكم بما أنزل الله ، والأمر يقتضى الوجوب ، إذ لم يصرفه عن الوجوب صارف ، فما بالك وقد جاء مقررًا ومؤكداً لما سبق قوله تعالى ﴿ واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ وذلك بتغيير أى حكم من الأحكام المنزلة عليك ، كتغيير الرجم بالجلد . إلى غير ذلك ، فما عليك إلا أن تبلغ أحكام الله

(١) الآية ٣٥ من سورة النحل .

(٢) جزء من الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .

(٣) الآية الأولى من سورة الفرقان .

(٤) من الآيتين ١ ، ٢ من سورة الجن .

(٥) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

(٦) جزء من الآية ١٤٠ من سورة البقرة .

(٧) جزء من الآيات ٢١٦ من سورة البقرة .

كما أنزلت ، فإن تولوا وانصرفوا ولجوا في طغيانهم يعمهون ﴿٤﴾ فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴿٥﴾ فما بالك لو أصابهم بذنوبهم كلها ، إذا ما ترك عليها من دابة ﴿٦﴾ وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴿٧﴾ أى من هؤلاء الذين يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴿٨﴾ يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم توتوه فاحذروا ﴿٩﴾ وهؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بقوله ﴿١٠﴾ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴿١١﴾ ومن على شاكلتهم ومن لف لفهم وذهب مذهبهم ودار في فلکهم . قوله تعالى ﴿١٢﴾ أفحكم الجاهلية يبغون ﴿١٣﴾ أى يعرضون عن حكم الله فيبغون حكم الجاهلية ، والجاهلية قد تكون في العقيدة ، كما في قوله تعالى ﴿١٤﴾ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله ﴿١٥﴾ وقد تكون الجاهلية في الحكم ، كمن حكم بغير ما أنزل الله ، وقد تكون الجاهلية في الغريزة والشهوة ﴿١٦﴾ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴿١٧﴾ وقد تكون الجاهلية حماقة كما في قوله تعالى ﴿١٨﴾ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴿١٩﴾ وفي جاهلية الحكم يلقي القرآن الكريم باللائمة على هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، فتركوا الحكم بما أنزل الله ، وابتغوا قوانين وأحكاماً من هنا وهناك ، لا تصون عرضاً ولا تحفظ مالاً ولا نفساً ولا عقلاً ولا ديناً ﴿٢٠﴾ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴿٢١﴾ لا أحد فالله هو الحكم العدل ﴿٢٢﴾ لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً ﴿٢٣﴾ وهو الواحد الأحد لا يشرك في حكمه أحدا سبحانه عز من قائل ﴿٢٤﴾ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴿٢٥﴾ .

النهي عن موالاته الكافرين

* يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ وَأَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلُؤُلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَاصْبِرُوا خَيْرِينَ ﴿٥٣﴾

المفردات : ﴿مرض﴾ : شك ونفاق . ﴿دائرة﴾ : ما يدور به الزمان من المصائب والإحزن التي تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها . ﴿حبطت﴾ : بطلت أعمالهم .

(٤) جزء من الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .

(٥) جزء من الآية ٢٦ من سورة الفتح .

(٦) جزء من الآية ٢٧ من سورة الكهف .

(٧) من الآيات ١٢٣ - ١٢٦ من سورة طه .

(١) جزء من الآية ٤١ من هذه السورة وقد سبق تفسيرها .

(٢) جزء من الآية ٤٢ من هذه السورة وقد سبق تفسيرها .

(٣) جزء من الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .

روى الرواة^(١) : أنه جاء عبادة بن الصامت من بنى الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن لي موالى من اليهود كثيراً عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبى : إني رجل أخاف الدوائر لأبرأ من موالاة موالى ! فقال الرسول ﷺ لعبد الله بن أبى : « يا أبا الحباب : رأيت الذى نفست به من ولاء يهود على عبادة فهو لك دونه » قال : إذن أقبل ، فنزلت الآية يا من اتصفتم بهذا الوصف وهو الإيمان بالله ورسوله سواء كان هذا باللسان فقط ولا إخلاص معه ، أو كان إيماناً صادقاً ومعه الإخلاص ، لا يليق بكم أن تفعلوا ما نهاكم الله عنه ، من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، تلقون إليهم بالمودة ، وتسرون إليهم بما أخفيتم وما أعلنتم ، وتتحابون إليهم وتصادقونهم ، إذ بعض اليهود أولياء بعض وبعض النصارى أولياء بعض ، والكل متفق على كلمة واحدة هي : بغضكم بغضاً شديداً ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، أى من جملتهم ، وحكمه حكمهم . وهذا تشديد على المنافقين الذين يتخذون صداقات ، ويرتبطون بصلات باليهود والنصارى وأعداء الدين ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أنفسهم بموالاة الكفار أيا كان السبب فترى يا محمد وكذا كل من تصح منه الرؤية ، ترى الذين فى قلوبهم مرض الشك والنفاق كعبد الله بن أبى وأضرابه ، يسارعون فى موالاتهم ويرغبون فيها رغبة أكيدة خالصة للشيطان ، وانظر إلى تعبير القرآن ﴿ يسارعون فيهم ﴾ بدل يسارعون إلى موالاتهم ، للإشارة إلى أنهم منتقلون من بعض مراتبها إلى بعض ، فهم مستقرون فيها ، يقولون متعللين : ﴿ نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾ تدور علينا من دوائر الدهر ودولة من دولة بأن ينقلب الأمر للكفار واليهود ، وتدول الدولة على المسلمين ، فنحتاج إليهم فلا يسعفوننا بالميرة والطعام ، رأيت كيف لا يثق المنافقون بوعد الله ! وأن حزب الله هم المفلحون . ﴿ عسى الله أن يأتي بالفتح ﴾ وعسى فى القرآن وعد محتوم ، فإن الكريم متى أطمع أطعم ، وإذا وعد حقق ، فما ظنك بأكرم الأكرمين ؟ ﴿ وهو على كل شئ قدير ﴾^(٢) والمراد بالفتح فتح مكة ، أو فتح من عنده شامل لتأسيس الدولة وانتظام شؤونها واستقرارها فى الوجود ﴿ أو أمر من عنده ﴾ يفضح حال المنافقين ويهتك سترهم ويرد كيدهم فى نحورهم ، وقد صدق الله وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، فيصبح أولئك المنافقون نادمين على ما أسروا وكتموا ، ويقول الذين آمنوا تعجبوا وتعريضا وشماتة بهم ، مخاطبين اليهود ومشيرين إلى المنافقين الذى كانوا يوالونهم ، وقد بدت الأمور على غير ما كانوا يرجون ﴿ أهؤلاء ﴾ ﴿ المنافقون ﴾ الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ﴿ أيها اليهود ﴾ حبطت أعمالهم ﴿ التى كانوا ينافقون بها من صلاة وصوم ﴾ فأصبحوا خاسرين ﴿ دنيا وأخرى . وهذا مرض خطير ينتشر فى الأمم الضعيفة المستعبدة ، ترى الكثير من أبنائها الذين فى قلوبهم ضعف وفى نفوسهم مرض يلجئون إلى الأعداء من الأجانب ، يتخذون عندهم يداً ، لأنهم ليسوا مؤمنين بالنصر ، وأن الدولة لهم ، يا قوم : أسمعوا وعوا واعتبروا ، فإنما يتذكر أولو الألباب .

(١) تفسير القرطبي ٦ ص ٢١٦ .

(٢) جزء من الآيات : ١٢٠ من سورة المائدة .

المرتدون المحاربون لهم

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۖ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمْ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾

المفردات : ﴿ يرتد ﴾ : الارتداد الخروج من الإسلام والدخول في الكفر مطلقاً ، أو بسبب ترك ركن الزكاة أو غيره من أركان الإسلام جهاراً وعناداً . ﴿ يحبهم ﴾ : يجازيهم على أعمالهم أحسن الجزاء وأتمه ، ﴿ يحبونه ﴾ : يخلصون له في العمل ويطيعونه في كل أمر ونهى . ﴿ أذلة ﴾ : جمع ذليل بمعنى عاطفين عليهم . ﴿ أعزة ﴾ : جمع عزيز ، بمعنى أنهم متعالون عليهم . ﴿ راكعون ﴾ : خاشعون وخاضعون . ﴿ حزب الله ﴾ : الحزب الجماعة المجتمعة التي حزبها أمر من الأمور وألم بها أمر في اتجاه خاص .

روى أنه قد ارتد عن الدين إحدى عشرة قبيلة : ثلاث أيام النبي ﷺ وسبع أيام أبى بكر رضى الله عنه ، وجبله بن الأيهم أيام عمر رضى الله عنه .
فالدین أرتدوا أيام النبي ﷺ .

١ - بنو مبرح ورئيسهم الأسود العنسى تنبأ باليمن وكان كاهناً وأهلكه الله على يد فيروز الديلمي .
٢ - بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب ، تنبأ وأرسل كتاباً إلى النبي ﷺ وفيه أنه شريك ، وأن الأرض قسمان ، فكتب له النبي : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب : السلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، وقتله أبو بكر رضى الله عنه والذي قتله وحشى قاتل حمزة .

٣ - بنو أسد وزعيمهم طليحة بن خويلد ، ارتد أيام النبي ﷺ وقتله أبو بكر في خلافته ، ففر إلى الشام ثم أسلم وأحسن إسلامه . المرتدون أيام أبى بكر :

- ١ - غطفان وزعيمهم قرة بن سلمة . ٢ - فزارة قوم عيينة بن حصن .
- ٣ - بنو سليم قوم الفجاءة عبد ياليل ٤ - بنو يربوع قوم مالك بن نويرة .
- ٥ - بعض بنى نعيم وزعيمهم سجاح بنت المنذر الكاهنة .
- ٦ - كندة قوم الأشعث بن قيس ٧ - بنو بكر بن وائل الحطيم بن زيد .

وقد ارتد أيام عمر جبله بن الأيهم من الغسانيين ، تنصر ولحق بالشام وله في ذلك شعر وحوادث ، وسبب ارتداده أنه كان بمكة فطاف فوطئ لإزاره رجل من بنى فزارة ، فلطمه جبله فهشم

أنفه ، فاستعدى الفزاري عليه عمر رضى الله عنه ، فحكم إما بالعفو أو القصاص فقال جيلة : اتقتص منى وأنا ملك وهو سوقة .

الإسلام بجلاله وكأله وعقيدته وشريعته دين الفطرة ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾^(١) .

قيل لأعرابي لم آمنت بمحمد فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليته لم يأمر ، ولم ينه عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى . وإذا سألت أى مسلم يملك عقلاً راجحاً وقلباً صادقاً ويقيناً راسخاً عن نهجه فى الإسلام ، لقال لك بلسان الحال والمقال : المعرفة رأسمالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر إلى الله فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة . إن كل جملة من هذه الجمل درة تتألق فى تاج العلا والمجد المائل ، إنها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون قل أتتاجونا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾^(٢) إن بشاشة الإيمان إذا تمكنت من شغاف القلوب تكاد تجعل المستحيل ممكناً ، والملح الأجاج عذباً فراتاً سلسبيل ، ولا يغير هذه الفطرة إلا من كان فى قلبه مرض ، بحيث يدخل الإسلام دخول غير متمكن ﴿ يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾^(٣) ومرضى القلوب فى الدنيا كثر يظهرون الإيمان باللسان فيقولون ﴿ آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض ﴾^(٤) هؤلاء الذين قالوا آمنا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم ، سمّعون للكذب ، لا يتجاوز الإيمان حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب من تعجبهم حالهم ، إن هذا الخطاب العلوى يقول لهؤلاء : يا معشر من آمن من يرتد منكم عن دينه فيغيره ويبدل نعمة الله كفراً ، فإن الله غنى عن العالمين فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يبدد هذا الكون ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾^(٥) إنه من يرتد عن دين الله فسوف يأتى الله بقوم يعرفون الله حقه وللدن قدره ، إنهم حزب الله الذين وصفهم بتلك الصفات .

(يحبهم ويحبونه)

(يجاهدون فى سبيل الله)

(ولا يخافون لومة لائم)

(٤) من الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة البقرة .

(٥) الآيات : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة فاطر .

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٢) الايتان ١٣٨ ، ١٣٩ من سورة البقرة .

(٣) من الآية ١١ من سورة الحج .

(الذين يقيمون الصلاة)

(وهم راكعون)

(ويؤتون الزكاة)

إن هذه المبادئ تؤدي إلى نتيجة حتمية الوقوع ، حكم بها العليم القدير العلي العظيم في قوله ﴿ فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمْ الْغَالِبُونَ ﴾ كما حكم بها في قوله : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴿^(١)﴾ . إن هذا الحزب لا يغير مبدأ ولا ينحرف عن هدف ، لأن قائده صاحب الرسالة العصماء ﷺ الذي قالها في سمع الزمان عالية مدوية ﴿ وَاللَّهُ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسُ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرُ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتَهُ حَتَّى يَظْهَرَ اللَّهُ أَوْ أَهْلَكَ دُونَهُ ﴾ فقال له عمه أبو طالب يا ابن أخي قل ما شئت فوالله لا أسلمك إليهم أيداً ، ثم أنشد .

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

إن قائد هذا الحزب : هو الذي وقف في جموع المشركين يوم حنين يقول بقوة دونها قوة الجبال الرواسي : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب إن هذا الحزب في صراع دائم مستمر مع حزب الشيطان الذي قال فيه المولى تبارك اسمه ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴿^(٢)﴾ فتأمل معي حزب الشيطان خاسراً أذل ، وحزب الرحمن هو حزب الله غالب مفلح ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾^(٣)﴾ إن حزب الله لا يوالى أعداء الله من اليهود والنصارى ، لأنه ملتزم بقوله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾^(٤)﴾ ملتزم بقوله جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدَوَامًا عَنْكُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(٥)﴾ إنه مستبصر بقول الله جل شأنه : ﴿ وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾^(٦)﴾ وحسبك أن تعلم أن الله يحب هؤلاء القوم الذين هم حزب الله ، فما بالك بحب الله : إنه الرضا كله والسعادة الكاملة في الدنيا والآخرة ، إن الله يحبهم كما أنهم يحبونه ، قيل لأبي بكر

(٤) من الآية ٥١ من سورة المائدة وقد سبق شرحها .

(٥) الآية : ١١٨ من سورة آل عمران .

(٦) من الآية ١١٩ من سورة آل عمران .

(١) الايمان : ٢١ ، ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢) الايمان : ١٩ ، ٢٠ من سورة المجادلة .

(٣) من الآيتين : ٨١ ، ٨٢ من سورة الأنعام .

رضى الله عنه : بم عرفت ربك قال عرفت ربي برى ، ولو لا ربي ما عرفت ربي ، وكان بعضهم يقول في مناجاته لله تعالى .

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب
إذا صبح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

لأنهم متواضعون فيما بينهم أذلة على المؤمنين ، لكنها ذلة فيها كرامة ونبيل ، أعزة على الكافرين ، وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾^(١) إنهم المجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، عقدوا مع الله تعالى عقد بيع وشراء ، وسجل الله هذا العقد في كتبهم السماوية وقال في ذلك : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾^(٢) إنهم الشجعان الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، إنهم حزب الله : الله وليهم والرسول زعيمهم والمؤمنون جماعتهم ، ومن كان هذا شأنه التزم حدود الله ، فأقام الصلاة وآتى الزكاة ، وهو راع خاضع متواضع لله .

فبادر يا أخا الإسلام بالانضمام إلى حزب الله ، وقف عند حدوده والزم مبادئه ، لتكون من الذين حكم الله لهم بأنهم : ﴿ كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ .

النهي عن موالاة أعداء الله

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ ءَأُولِيَآءُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَن ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ ءَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَد

(١) من الآية : ٢٩ من سورة الفتح .

(٣) من الآية : ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة .

دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿١١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبُّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾

المفردات : ﴿ هزوا ﴾ : سخرية . ﴿ ولعبا ﴾ : اللعب واللعب ضد الجد . ﴿ ناديتهم إلى الصلاة ﴾ : دعوتهم لها بالأذان والإقامة . ﴿ تنقمون ﴾ : نقم ينقم أنكر وعاب عليه قولاً أو عملاً . ﴿ مثوبة ﴾ : جزاء وثواباً من ثاب إليه إذا رجع ولا شك أن الجزاء يرجع إلى صاحبه . ﴿ طاغوت ﴾ : كل ما عبد من دون الله وعبادته مجاز عن طاعته .

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، وكذا المشركين ، لا تتخذوهم أولياء أبداً ، فإنهم يودون عنتكم ومشقتكم ، وقد ﴿ بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ﴾^(١) بعضهم أولياء بعض ، مع أن موالاتهم تغضب الله ورسوله . وهم الذين اتخذوا دينكم ومشاعره هزوا وسخرية ، ومظهراً من مظاهر اللعب والضحك ، ولا شيء أشق على النفس من استهزاء المعاند له وسخريته به وبرأيه وشعاره ، ﴿ واتقوا الله ﴾ أيها الناس واخشوا عذابه ووعيده على الموالاته ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ . كرر الله نهى المؤمنين عن موالاته أعدائهم من الكفار ، تنفيرا لهم عنها وتسجيلا على الكفار فعلهم . وبعد أن أثبت الله استهزاءهم للدين على وجه العموم ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾^(٢) سجل عليهم استهزاءهم لنوع خاص هو عماد الدين وأساسه ، وهي الصلاة ، ﴿ وإذا ناديتهم إلى الصلاة ﴾ بالأذان والإقامة اتخذوا هذه المنادة والصلاة ﴿ هزوا ولعبا ﴾ وما ذلك المستهجن القبيح : إلا لأنهم قوم لا عقل لهم يرشدتهم ، ولا رأى يهديهم بل هم في ضلالهم يعمهون ، إذ ما أروع هذا النداء الذي يهز القلوب ويجلوها ، ويطهر النفوس ويزكيها ، يا سبحان الله أهذا النداء يضحك ؟ الله أكبر . الله أكبر ، نعم : الله أكبر من كل شيء في الوجود ، استفتاح ياله من استفتاح ، وانظر إلى إتباعه بالشهادتين لله ورسوله ، وهما ركنا الإيمان ودعامته ، وما أروع قول المؤذن حي على الصلاة : أي أقبلوا عليها بجذ ونشاط ونفس راضية مطمئنة ، وحي على الفلاح ، وهل هناك فلاح أكثر من هذا وأعلى ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾^(٣) الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود أبو ياسر بن أخطب ورافع ابن أبي رافع في جماعة فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾^(٤) فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته ، وقالوا : لا نؤمن بمن آمن به وروى أنهم قالوا لا نعلم شراً من دينكم فنزلت الآيات ﴿^(٥) .

(٤) من الآية : ١٣٦ من سورة البقرة .

(٥) ورواه القرطبي ج ٦ ص ٢٣٣ .

(١) من الآية : ١١٨ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية ١٤ من سورة البقرة .

(٣) الآيات : ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .

قل يا أهل الكتاب ما تنقمون منا وما تعيونه علينا إلا إيماننا بالله ورسله إيماناً صادقاً خالصاً ، مع وصف الله سبحانه وتعالى بكل كمال وتنزيه عن كل نقص ، وكذا الرسل جميعاً عليهم السلام لا نفرق بين أحد منهم ، مع وصفهم بما يليق بهم شرعاً ، وكذا ما أنزل عليهم من الكتب ﴿ إِنَّ أَكْثَرَكُمْ لَفَاسِقُونَ ﴾ وخارجون عن حدود العقل والرأى والدين الصحيح ، يا عجباً كل العجب أيجعل مناط المدح عنوان الذم ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهم : ﴿ هَلْ أَنْبِئُكُمْ ﴾ أيها المستهزون بديننا القائلون ﴿ لَا نَعْلَمُ شَرّاً مِنْ دِينِكُمْ ﴾ بما هو ﴿ شر من ذلك ﴾ الدين الذي تنقمون به علينا دين ﴿ من لعنه الله وغضب عليه ﴾ بسبب سوء فعله وهذا تبكيت لهم شديد بذكر جرائم آبائهم وجرائمهم عليها إذ اللعن والغضب نهاية العقاب والمواخذة من الله لهم . ودين من ﴿ جعل منهم القردة والخنازير ﴾ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴿ ^(١) أولئك شر مكاناً وأضلّ عن سواء السبيل ﴾ وكان التعبير بشر مع أن هذا الدين خير محض بحجارة لهم في اعتقادهم ومشاكلة للفظهم ، وهاك سيئة أخرى تقتضى وحدها عدم الموالة . ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ ﴾ وحضروا مجالسكم خصوصاً مجلس الرسول ﷺ ﴿ قَالُوا آمَنَّا ﴾ باللسان فقط ، والحال أنهم دخلوا متلبسين بالكفر مؤزرين لا يفارقهم ﴿ وهم قد خرجوا به ﴾ والله أعلم بما يكتُمون حين الدخول من النفاق ، وعند الخروج من العزم على الكيد والمكر ، وما ملئت به قلوبهم من الحسد والبغضاء لكم ، فاحذروهم ولا توالوهم ﴿ وترى كثيراً منهم يسارعون ﴾ في ارتكاب ﴿ الإثم والعدوان ﴾ ويقبلون عليهما راغبين فيهما بجد ونشاط ، ويقبلون على ﴿ أكلهم السحت ﴾ والدينىء من المحرم تالله ﴿ لبئس ﴾ العمل عملهم وياضلال هؤلاء !! أما وجدوا من يرشدهم ؟ أما وجدوا من نيكر عليهم ﴿ لو لا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم ﴾ والكذب والبهتان في أمور الدين ﴿ وأكلهم السحت ﴾ تالله ﴿ لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ هؤلاء الأحبار . ولعل سائلاً يقول لم يقال في جانب الشعب ﴿ لبئس ما كانوا يعملون ﴾ وفي جانب الأحبار والعلماء ﴿ لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ والجواب : أن الفعل ما يصدر من الإنسان مطلقاً ، فإن قصد كان عملاً وإن صاحبه دوام ومرونة وإتقان ، كان صنعة وكان صاحبه صانعاً . وفاعل المعصية من الناس تدفعه شهوته ونفسه إليها ، وأما الذى ينهاه من الأحبار والعلماء بالطبع ، لا شهوة معه تدفعه إلى العمل ، ولا إلى عدم الإنكار ، كان أشد إثمًا ، وأعظم جرماً من الفاعل نفسه روى ابن عباس (ما فى القرآن أشد توبيخاً من هذه الآية) يريد أنها حجة على العلماء إذا هم قصرُوا فى الهداية والارشاد .

من سيئات اليهود التى تبعدهم من طريق السعادة فى الدارين

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَبِيلَةُ بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ

وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا
لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَاهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

المفردات : ﴿ اليد ﴾ : تطلق على الجارحة ، وتطلق مجازاً على النعمة وعلى العطاء ^(١) .
﴿ مغلوله ﴾ : ممسكة عن الإنفاق . ﴿ غلت أيديهم ﴾ : أمسكت عن الإنفاق والخير .
﴿ مبسوطتان ﴾ : المراد كثير العطاء . ﴿ أقاموا التوراة ﴾ : عملوا بما فيها على أتم وجه وأكملة وكذا
الإنجيل . ﴿ مقتصدة ﴾ : معتدلة .

روى الطبراني عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود ، قيل هو النباش بن قيس ، وقيل هو
فنحاص كبير ^(٢) بنى قينقاع ، قال للنبي ﷺ : إن ربك بخيل لا ينفق ! فأنزل الله هذه الآية . بعد أن
عدد الله من سيئاتهم وسجل عليهم بعض أعمالهم الموروثة ختم بذكر سيئة من أفضع سيئاتهم : ألا وهي
وصف الله سبحانه بما لا يتفق أبداً مع العقل ، ولا يقول به رجل من أهل الكتاب وقالت اليهود ، أى
بعضهم : ﴿ يد الله مغلوله ﴾ : وغل اليد وبسطها مجاز عن البخل وعدم الجود ، ألا ترى إلى قوله
سبحانه ﴿ ولا تجعل يدك مغلوله إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ ^(٣) وقول النبي ﷺ ﴿ أطولكن
يداً أسرع لحوقاً بي يوم القيامة ﴾ ^(٤) . والمراد بطول اليد الجود والكرم قال بعضهم هذا لما أصابهم
أزمة مالية ، ﴿ غلت أيديهم ﴾ وأمسكت عن الجود والخير ، فهم القوم البخلاء الأنانيون ، لعنهم الله بما
قالوا ، فهو الكريم ويجب كل كريم ، و﴿ يدها مبسوطتان ﴾ للعطاء ، ﴿ ينفق كيف يشاء ﴾ على وفق
الحكمة الإلهية ، فهو يعطي ويمنع ويقبض ، ويبسط لحكمة هو أعلم بها ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء
ويقدر ﴾ ^(٥) ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾ ^(٦) وتالله
﴿ ليزيدن ﴾ الذي ينزل عليك من الآيات البينات التي تكشف تسترهم ، وتطلعك على أعمالهم
ونواياهم ، ليزيدنهم ذلك ﴿ طغيانا ﴾ وجحوداً وبطراً يا سبحان الله ﴿ إنها لا تعمى الأبصار ولكن
تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ ما كان سبباً في الخير يكون عندهم سبباً في الشر .

(١) والمقصود هنا أنهم يقصدون - خاسئين خاسرين في قصدهم - أن نعم الله عليهم أقل مما يستحقون .

(٢) روى القرطبي بسنده عن عكرمة : ... قال هذا فنحاص بن عازوراء (لعنة الله) وأصحابه ، وكان لهم أموال فلما كفروا بمحمد
ﷺ قل ما لهم ، فقالوا : إن الله بخيل ، وبد الله مقبوضة عنا في العطاء ١٠ . هـ ج ٦ ص ٢٣٨ .

(٣) جزء من الآية : ٢٩ من سورة الاسراء .

(٤) أخرج الشيخان ، واللفظ لمسلم ، عن عائشة رضي الله عنها : قالت : قال رسول الله ﷺ : « أسرع لحاقاً بي أطولكن يداً »
قالت : فكأن يتناولن أيتهن طول يدا ، قالت : وكانت أطولنا يدا زينب (بنت جحش) لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق ، وفي
طريق آخر قالت : فكنا إذا اجتمعنا في بيت احدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمد أيدينا في الجدار نتناول فلم نزل نفعل ذلك حتى
توفيت زينب بنت جحش ... فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد طول اليد بالصدقة ... الاصابة (٤ / ٣١٤) وحياة الصحابة
(١٦٩ / ٢) . (٥) من الآية ٢٦ من سورة الرعد . (٦) من الآية ٢٧ من سورة الشورى .

ولقد حكم عليهم بأن ألقى بينهم ﴿العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾^(١) فلا يهمنك أمرهم ولا تغتر باتفاقهم في فلسطين المنكودة ، فهي سحابة صيف لهم ، وتنبيه من الله لنا علنا نشوب إلى رشدنا ونرجع إلى ديننا . ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب﴾ في الخارج أو الداخل كإثارة الفتن وتشيت الكلمة وتأليب العدو ، كلما فعلوا هذا أطفأ الله نارهم ، وأبطل عملهم ، وهم دائماً ﴿يسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين﴾ وسيجازيهم على ذلك بأقسى أنواع العقاب ثم بعد ذلك وسعت رحمته كل شيء ، وفتح باب كرمه للتائبين الذين يقبلون عليه ، ولو كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا﴾ بكتبهم وبالقرآن ولم يحرفوا ولم يركبوا رءوسهم ﴿واتقوا﴾ الله في كل أعمالهم ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾ التي اقترفوها ومحونا عنهم أوزارها ﴿ولأدخلناهم جنت النعيم﴾ ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ المنزلين من عند الله بنور التوحيد والهداية ، ولم يسمعوا لأخبارهم ومفترياتهم ، وآمنوا بما أنزل إليهم من ربهم لاسيما القرآن الكريم . وعملوا بما فيها على خير وجه وأتمه ، لبسط الله الرزق لهم وأنزل عليهم الخير والتوفيق ، وأكلوا من كل جانب وفي هذا إشارة إلى أن العمل الصالح مع الإيمان الكامل مدعاة لرضى الرب وسعة الرزق والسعادة في الدنيا والآخرة ، مع سلوك الطرق المعروفة والنظم المألوفة في عالم الاقتصاد ، ومن أهل الكتاب ، وكذا كل أمة في الوجود - جماعة قليلة معتدلة في الرأي ، والكثير الغالب منهم فاسقون وخارجون عن أصول الدين والعقل (الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة) .

تبليغ الرسول للدين

* يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾

المفردات : ﴿يعصمك﴾ : يحفظك مأخوذ من عصام القرية وهو ما يربط به فمها من خيط أو سير جلد . ﴿الصابئون﴾ : الخارجون عن الأديان كلها ، وقيل هم قوم عبدوا الملائكة ، وصلوا إلى غير القبلة .

روى ابن مردويه عن ابن عباس قال : سئل رسول الله ﷺ : أى آية من السماء أنزلت أشد عليك ؟ فقال : كنت بمنى أيام موسم واجتمع مشركو العرب وأفناء الناس^(٢) فنزل جبريل فقال ﴿يا أيها

(٢) أصنافهم وقبائلهم المختلفة ، والموسم هو موسم الحج .

(١) من الآية : ١٤ من سورة الحشر .

الرسول بلغ ما أنزل إليك ﴿ فقلت : أيها الناس من ينصرني على أن أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة ؟ أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول الله إليكم تفلحوا وتنجوا ولكم الجنة ، قال ﷺ فما بقى رجل ولا امرأة ولا صبي إلا يرمون على بالتراب والحجارة ويقولون كذاب صابئ فجاء عمه العباس فأنقذه منهم وطردهم عنه .

نادى الله سبحانه وتعالى حبيبه بوصف الرسالة التى تقتضى التبليغ التام الكامل : ﴿ أيها الرسول بلغ ﴾ جميع ﴿ ما أنزل إليك من ربك ﴾ لا تخش أحداً ولا يهمنك شيء أبداً ، فإنك إن لم تبلغ الكل ﴿ فما بلغت رسالته ﴾ فكان كتمان شيء من الرسالة ولو إلى أجل هو كتمان الكل ، تفضيلاً لجرم الكتمان ، وكيف يكتُم الرسل ﷺ شيئاً من الرسالة خوفاً أو خشية : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ أجمعين يعصمك من القتل والفناء ، أما العذاب والشدائد والآلام والحروب والإحزن فهى الحوادث التى تصنع الرجال ، والبوتقة التى صهرت الناس ، فظهر المؤمن الصادق من المنافق الكاذب وكيف يكون رسول الله ﷺ ولا يعصمه ؟ وهو المعصوم : انظر كيف يضل المسيحيون حين يعتقدون صلب المسيح وقتله ؟ ولعل الحكمة فى هذه الآية أن يعرف الجميع أن النبى ﷺ رسول رب العالمين بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه لم يكتُم شيئاً ولم يخص أحداً بشيء ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ (١) إن ﴿ الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ الذى يؤذونك ويعاندونك ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ لستم على شيء ﴾ يعتقد به من أمر الدين ، ولا ينفعكم الانتساب إلى موسى وعيسى والنبين ﴿ حتى تقيموا التوراة والإنجيل ﴾ وإقامتها : العمل بكل ما فيها من التوحيد الخالص ، والبشارة بالنبى ﷺ وصفته ، وحتى تقيموا ﴿ ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ على لسان محمد ﷺ ، وهو القرآن المصدق لما تقدمه من الكتب والمكمل للرسالات السابقة ، ونحن أيها المسلمون لسنا على شيء أبداً حتى تقيم القرآن ونعمل بأحكامه ونهتدى بهديه فى كل أمورنا وأقسم الله ﴿ ليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك ﴾ وهو القرآن ﴿ طغيانا ﴾ على طغيانهم ﴿ وكفراً ﴾ على كفرهم وذلك بسبب حسدهم الكامن ﴿ حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ (٢) . أما القليل منهم الذين يؤمنون بالله وبكتبه ، فلا يزيدهم القرآن إلا هدى ورشاداً وخيراً وإسعاداً . وإذا كان هذا شأن القرآن ، فلا يهمنك أمرهم و﴿ فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ وهاك قانون عام وحكم شامل للجميع على اختلاف أشكالهم وألوانهم ، ولا غرابة فهى الرسالة العامة ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ (٣) ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ باللسان كالمنافين ﴿ والذين هادوا ﴾ من أتباع موسى عليه السلام والذين صبئوا وخرجوا عن حدود الأديان ﴿ والنصارى ﴾ من أتباع المسيح عليه السلام ﴿ من آمن ﴾ منهم ﴿ بالله ﴾ ورسله ﴿ واليوم الآخر ﴾ إيماناً صادقاً ﴿ وعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ أبداً من عذاب يوم القيامة ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ أبداً بل هم فى جنات النعيم على الأرائك ينظرون .

(٣) من الآية : ٢٨ من سورة سبأ .

(١) من الآية : ١٥٣ من سورة الأنعام .

(٢) من الآية ١٠٩ من سورة البقرة .

العذاب بما كنتم تكفرون ﴿١﴾ ، وكفى بالكفر داءً وكفى به جريمة وجناية ووباءً ، إن الله تعالى أطلق الكفر ولم يذكر متعلقه لأنهم كفروا بكل ما جاء به المرسلون ، كفروا بالوحدانية والأنبياء والبعث والحساب والجزاء ، إن مصيرهم خسران : ﴿٢﴾ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله ﴿٣﴾ ومصيرهم ندم ، ونار الندم تتأجج في الأضلاع ، ﴿٤﴾ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴿٥﴾ أى يا ندامتنا أحضرى وتعالى على ما قصرنا في أمور الدار الآخرة ، يقولون هذا وهم يحملون أوزارهم وذنوبهم وخطاياهم على ظهورهم . ﴿٦﴾ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون * وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴿٧﴾ .

(ألا ساء ما يزرون) وبئس ما يحملون .

تزود من حياتك للمعاد وقسم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا كثيراً فإن المال يجمع للنفساد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

كان حاتم الأصم رضى الله عنه إذا راودته نفسه لتميل به إلى الهوى ذهب إلى مقبرة مهجورة ونام فيها ثم ينادى قائلاً : ﴿١﴾ رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ﴿٢﴾ ثم ينهض قائماً ويقول : يا حاتم لقد رجعت فاعمل قبل أن تموت فيقال لك : ﴿٣﴾ كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴿٤﴾ . صدقت يا سيدى يا رسول الله إذ قلت : ﴿٥﴾ والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حذاء منقول
فإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

قوله تعالى : ﴿١﴾ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴿٢﴾ . هذا بيان لحقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ، فالدنيا لعب في الصغر ولهو في الكبر ، أولها بكاء وأوسطها عناء وآخرها فناء وميت الغد يشيع ميت اليوم .

لا تركزن إلى الدنيا وما فيها فالموت لاشك يفنيها ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

كل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية .

﴿إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ . أجنتم فلا تعقلون !!

دنياك ساعات سراع الزوال وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا غافلاً وتشترى دنيا المنى والضلال

تثبيت وتسلية

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَايِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْتَطِيعَتْ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

المفردات ﴿ليحزنك﴾ : الحزن ألم نفسى يكون عند فقد محبوب أو امتناع مرغوب أو حدوث مكروه . **﴿يجحدون﴾** : الجحود إنكار ما ثبت، في القلب أو إثبات ما نفى فيه . **﴿نبأ﴾** : هو الخبر ذو الشأن العظيم . **﴿كبر﴾** : يقال كبر على فلان الأمر أى عظم عنده وشق عليه وقعه . **﴿إعراضهم﴾** : الإعراض التولى والانصراف عن الشيء رغبة عنه ، أو احتقاراً له . **﴿أن تبغى﴾** : أن تطلب ما في طلبه كلفة ومشقة من البغى وهو تجاوز الحد ويكون في الخير والشر . **﴿نفقا﴾** : السرب في الأرض وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج . **﴿سلماً﴾** : المرقاة من السلامة لأنه هو الذى يسلمك إلى مصعدك .

هذا تثبيت لرسول الله ﷺ وتسلية له عندما يشتد عليه الأذى من كلامهم وقولهم إنه ساحر كذاب إلى غير ذلك ، وحاشا رسول الله أن يكون كذلك والله تعالى يقول له : ﴿إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك﴾ فأنت الصادق الأمين ، ولكن الحقيقة أنهم يجحدون بآياتى فلا يكن فى صدرك حرج مما يقولون ، فلست بدعا من الرسل فقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على الأذى حتى أتاهم نصر الله ولا تبديل لكلماته سبحانه وتعالى . **﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾** ما ثبت الله به فؤادك ، إنك من المتوكلين على الله فسلم له الأمر فليس لك من الأمر شيء ، أستطيع إن كان كبر عليك إعراضهم أن تطلب نفقا فى باطن الأرض أو تصعد سلما إلى السماء وترقى فيها فتأتهم بآية ، ليس لك من الأمر شيء فالأمر كله لله **﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾** وهذا تعريض بهم هم وتوبيخ لهم على جهلهم الذى تأصل فى نفوسهم ، أما أنت فقل لهم سبحانه ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ، أنت عبدى ورسولى **﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾**

وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴿١﴾ .

حقائق قرآنية

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

تفسير المفردات : ﴿ يستجيب ﴾ استجاب الدعاء إذا لباه وقام بما دعاه إليه بالتدريج . ﴿ يسمعون ﴾ : أى سماع حق لا عناد فيه قال تعالى ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ (١) . ﴿ آية ﴾ : خارق من خوارق العادات . ﴿ قادر ﴾ : لا يعجزه شئ فى السموات ولا فى الأرض .

الناس فريقان فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فريق تتلى عليه آيات الله فيسمعها سماع قبول ، وينظر إليها نظرة اعتبار وتذكر ، نظرة خالية من الهوى والعناد والاستكبار ، وهؤلاء يستجيبون لما دعاهم الله ، فهم كالتربة الصالحة للإنبات تقبل الماء وتنبت الكلى وفريق تتلى عليه الآيات فيظل متكبرا سادراً فى غلوائه ، لا ينظر ولا يعتبر ولا يسمع سماع قبول ، وهم موتى القلوب أبعد الناس عن الانتفاع بما يسمعون ، هؤلاء يترك أمرهم إلى الله فهو الذى يبعثهم بعد موتهم ، فيحاسبهم ويجازيهم ثم إليه يرجعون ، هو القادر على ذلك وحده فلا تبخع نفسك عليهم حسرات ، إذ ليس فى استطاعتك هدايتهم ، إنما عليك البلاغ وعلى الله الحساب .

وقال المشركون المعاندون بعد نزول الآيات ترى التى لو لم يكن فيها إلا القرآن لكفى قالوا : هلا نزل عليه آية من ربه كما اقترحنا . وقالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ (٢) كيف تطلبون منى هذه الآيات وهل أنا إلا بشر ورسول وليس يقدر الرسول على إنزال آية من الآيات ، وإنما القادر هو الله فقط على إجابتهما لما تطلبون .

وقد مضت سنة الله فى الأمم أن إجابة المعاندين إلى ما طلبوا لم تكن سبباً لهدايتهم أبداً ، بل كانت سبباً فى عذابهم واستئصالهم ، فإنزال آية مما اقترحوا لا يكون خيراً لهم ، بل هو شر ، ولكن أكثرهم

(٣) الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الإسراء .

(١) الآيات ١٢٠ - ١٢٢ من سورة هود .

(٢) الآية ١٠ من سورة الملك .

لا يعلمون ، وطلبهم تعجيز للنبي ﷺ لا للهداية ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾

من دلائل قدرة الله وكمال علمه

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٩﴾

المفردات : ﴿ دابة ﴾ : الدبيب . المشى الخفيف . والدابة كل ما يدب على الأرض من الحيوان . ﴿ والطائر ﴾ : كل ذى جناح يطير فى الهواء . ﴿ أمم ﴾ : جمع أمة ، وهى كل جماعة يجمعهم أمر كدين أو لغة أو صفة أو عمل

الله سبحانه وتعالى على كل شىء قدير ، ينزل الآيات حسب الحكمة والمصلحة ، وهما هى ذى مظاهر القدرة ، وشمول العلم ، وكمال التدبير ، لا يوجد نوع من أنواع الدواب يدب على الأرض ، ولا نوع من أنواع الطير الذى يطير فى الجو ، إلا وهو أمم مماثلة لكم أيها الناس ، لهم أرزاق وآجال ونظام محكم وطبائع تتلاءم مع خلقتهم وتكوينهم ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وخص دواب الأرض بالذكر لأنها مرئية للكفار ، أما ملكوت الله فى السموات ففيه ما لا يعلمه إلا الله وحده .

وهذه الآية توجه أنظارنا إلى البحث والدرس فى طبائع الحيوان ، والاستفادة من ذلك ، فقد خلق الله لنا جميع ما فى الأرض لنتنفع منه ونسخره لمصلحتنا ، وما فرطنا فى الكتاب من شىء أبداً ، ولا قصرنا فى أى شىء أبداً .

وقال ابن عباس إن المراد بالكتاب هو أم الكتاب (وهو خلق غيبى سجل فيه كل ما كان وما سيكون على حسب السنن الإلهية) .

وقيل : الكتاب هنا هو علم الله المحيط بكل شىء ، شبه بالكتاب ثابتاً لا ينسى .

وقيل : هو القرآن ، ففى القرآن السياسة العامة الإسلامية من ناحية الاقتصاد والاجتماع والدين ، وفيه الأصول العامة الأخرى للدين كالسنة والقياس والإجماع والجزئيات ، ثم إلى ربهم يحشرون ، ويجازون على أعمالهم .

والذين كذبوا بآياتنا المنزلة الدالة على كمال القدرة ، وتمام العلم والحكمة ، صم لا يسمعون دعوة

الحق والهدى سماع قبول ، وبكم لا ينطقون بما عرفوا من الحق ، وهم يتخبطون في الظلمات ظلمات الجهل والكفر والعادات القبيحة ، من يشأ الله يخذله ويضله ولا يلفظ به ، لأنه ليس من أهل اللطف ، حيث ثبت في علمه القديم أنه أهل لما هو فيه من شقاء وعذاب ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ، لأنه أهل لذلك في علمه ، وهكذا كانت الحكمة فيما اختاره الله أزلا وفق علمه ، صنع الله الذي أتقن كل شيء ، إنه خير بعباده ، بصير بخلقه . إلى الله وحده يلجأ العبد في الشدائد ، مع ضرب الأمثال بالأمم السابقة .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾
 بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ
 بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا
 مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا
 هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

المفردات : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ : أسلوب عربى يفيد التعجب وأن ما بعده غريب عن الصواب والمراد أخبرونى . ﴿ فَيَكْشِفُ ﴾ : أى يزيل ما تدعونه إلى كشفه . ﴿ بِالْبَأْسَاءِ ﴾ : الشدة والعذاب والقوة ، وتطلق البأساء على الحرب والمشقة . ﴿ الضراء ﴾ : من الضر ضد النفع . ﴿ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ : التضرع إظهار الضراعة والخضوع بتكلف . ﴿ مبلسون ﴾ : متحسرون يائسون من النجاة . ﴿ دابر القوم ﴾ : آخرهم الذى يكون فى أديبارهم .

يا أيها الرسول قل لأولئك المشركين : أخبرونى إن أتاكم عذاب الله الذى نزل بأمثالكم من الأمم السابقة كالخسف والريح الصرصر والغرق ، أو أتتكم الساعة وهولها ، والقيامة وما فيها ، أخبرونى إن حصل هذا أغير الله تدعون ؟ لينجيكم من هذا العذاب وهوله . إن كنتم صادقين فى دعوى الإلوهية لهؤلاء ، والأصنام الذى زعمتم أنهم فيكم شركاء ولكم شفعاء ، والسؤال للتبكيك والإلزام بل (إضراب لإبطال ما تقدم) إياه وحده تدعون ، وله وحده تتجهون ، وبه وحده تستعينون ، حتى يكشف عنكم ما ألم بكم من ضر ، أو مسكم من شدة ، يكشف ما تدعون إليه إن شاء كشفه وكان فيه حكمة ، وأنتم تنسون ما تشركون ، وتتركون آلهتكم ، ولا تذكرون فى ذلك الوقت إلا الله : ﴿ فإذا ركبوا فى

الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴿١﴾ .

وذلك أن الإنسان أودع في فطرته توحيده عز اسمه ، وأما الشرك فشئ عارض للإنسان بالتقليد ، شاغل للذهن بالفساد وقت الرخاء ، حتى إذا جد الجد دعوا الله مخلصين له الدين ، وضل عنهم ما كانوا يعبدون . ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ ﴿٢﴾ .

ثم أخذ القرآن يضرب الأمثال بالأأم السابقة فقال : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ رسلاً مبشرين ومنذرين ولكن أمهم عصوا وبغوا ﴿ فأخذناهم بالبأس ﴾ والشدائد ﴿ والضراء ﴾ والمهلك التي تجعل المغرور يراجع نفسه ويفكر في أمره ولذا يقول الله ﴿ لعلهم يتضرعون ﴾ ويلجئون ، ومع هذا فكثير من الناس لا تنفهم هذه الزواجر ولا تروعهم هذه الشدائد .

فهلاً تضرعوا حين جاءهم بأسنا وكانوا خاشعين تائبين ، ولكن أنى لهم هذا وقد قست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، فلم تؤثر فيهم النذر ، ولم تنفعهم العبر ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . وبئس ما كانوا يصنعون

فلما نسوا ماذكروا به وأعرضوا عما أُنذروا به فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ناحية ، ومتعناهم بالحياة الدنيا ، استدراجاً وإملاء ﴿ نمتعهم قليلاً ﴾ ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴿٣﴾

حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، بلا إنذار ولا استئذان ، أخذناهم بغتة فإذا هم متحدسون يائسون من رحمة الله ، فقطع دابر القوم عن آخرهم ، حتى لم يبق منهم أحد والحمد لله رب العالمين ، وفي هذا إشارة إلى أن إبادة القوم المفسدين نعمة من الله رب العالمين ، وأن في الضراء والسراء عبرة وعظة للناس ، وإنما يتذكر أولو الألباب .

من أدلة التوحيد

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَابْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

(٣) الآية ٢٤ من سورة لقمان .

(١) الآية ٦٥ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ٣٠ من سورة الروم .

المفردات : ﴿ نصرف الآيات ﴾ : نقلها ونكرها على وجوه مختلفة . ﴿ يصدفون ﴾ : يعرضون عن ذلك ﴿ يمسه ﴾ : المس اللمس باليد بما يسىء غالباً من ضر أو شد .

قل لهم يا محمد لهؤلاء المشركين : أخبروني ماذا أنتم فاعلمون إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ، وختم على قلوبكم ، إذ هو الذى وهب لكم السمع والبصر والفؤاد ، وإذا سلبها منكم عدتم صمًا وعميًا لا تسمعون قولاً ، ولا تبصرون طريقاً ، ولا تعقلون نفعاً ولا ضرراً ، ولا حقا ولا باطلا ، ماذا تفعلون مع آلهتكم التى تدعونهم وترجون شفاعتهم ، ولو فعل الله بكم ذلك من إله غير الله يأتيكم بهذا ؟ لا إله إلا الله وحده هو الذى يقدر على ذلك ، ولو كان ما اتخذتموه آلهة تنفع أو تضر لردت عليكم هذا ، وإن كنتم تعلمون بلا شك أنها لا تقدر على شيء أصلا ، بل إن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، فلماذا تدعونهم ؟ والدعاء عبادة ، والعبادة لا تكون إلا لله وحده القهار ، واهب الوجود ، الحق المعبود سبحانه وتعالى ، انظر يا من يتأتى منه النظر كيف يصرف الله القول ويكرره بألوان مختلفة ، وعلى أساليب متعددة فى غاية الوضوح والبيان ، ثم هم بعد ذلك يعرضون ويصدفون عن النظر إليها بعين بريئة ، خالية من حجب التقليد وغطاء العصبية وداء الحسد .

قل لهم : أخبروني إن أتاكم العذاب من الله كما أتى لمن قبلكم من المكذبين الضالين عذاب الخسف والاستئصال والهلاك ، وأتاكم هذا العذاب بغتة بلا مقدمات ، أو أتاكم العذاب جهرة وعلانية بمقدمات وأنتم تنظرونه .

أخبروني ماذا أنتم فاعلمون ؟ هل يهلك بهذا إلا القوم الظالمون ، الذين ظلموا أنفسهم بسلوكهم طريق الشرك والباطل .

وما نرسل المرسلين إلا مبشرين من آمن بالثواب ، ومنذرين من عصى بصارم العذاب ، ولا عليهم شيء بعد هذا أبدا ، سواء عليهم آمن الناس أم كفروا : ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ ^(١) أما الله سبحانه وتعالى فهو المجازى ، فمن آمن وأصلح نفسه فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ لا يخزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ ^(٢) وهم فى الدنيا متدرعون بسلاح الإيمان والصبر ، ودرع التقوى والشكر ، إن مسهم خير شكروا ، أو ضر صبروا ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم ﴾ ^(٣)

ومن كذب وتولى ، وأعرض عن ربه وغوى ، فإنه يمسه العذاب ، ويصيبه فى الدنيا والآخرة جزاء كفره وفساده .

وإن أصابه خير فى الدنيا فمتاع قليل ، ثم يضطره الله إلى عذاب النار وبئس المصير .

(١) الآية ٤٨ من سورة الشورى .

(٢) الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٢٣ من سورة الحديد .

مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتبعات الرسالة

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٣﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٤﴾

المفردات : ﴿ خزائن ﴾ : جمع خزانة وهى ما يخزن فيه الشيء ويحفظ ، والمراد القسم بين الخلق وأرزاقهم . ﴿ الغيب ﴾ : ما غاب عن جميع الخلق واستأثر الله بعلمه... ﴿ الأعمى والبصير ﴾ : المراد بهما الضال والمهتدى .. ﴿ الولي ﴾ : الناصر .. ﴿ ولا تطرد ﴾ : الطرد الإبعاد .. ﴿ بالغداة ﴾ : الغداة والغدوة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .. ﴿ العشي ﴾ : آخر النهار والمراد جميع الأوقات ﴿ فتنا ﴾ : ابتلينا واختبرنا .. ﴿ من الله عليهم ﴾ : أنعم الله عليهم .

وهكذا يبين الكتاب العزيز حقيقة النبوة : إنها البشرية فى أسمى معانيها ، وأرقى مبادئها . قال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ^(١) . وجاء فى سورة هود حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيتهم الله خيراً . الله أعلم بما فى أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ﴾ ^(٢) .

وفى سورة الأنعام يخاطب الله تعالى نبيه الكريم فيقول : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ﴾ أى لا أملك خزائن الأرزاق ، إنما الأمر كله لله اختص سبحانه وتعالى بملكية الأشياء كلها ، فهو العليم بشئون عباده القدير ، على تصرفها ، الحكيم فى تقسيمها ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكنكم خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتوراً ﴾ ^(٣) .

كما أنى لا أعلم الغيب الذى هو من خصائص الألوهية ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من

(١) الآية ١١٠ من سورة الكهف . (٢) الآية ٣١ من سورة هود . (٣) الآية ١٠٠ من سورة الإسراء .

ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴿١﴾ .

﴿ قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيات يُبعثون ﴾ ﴿٢﴾ إن هذا هو منطق الحق المبين وتلك هى العقيدة الصحيحة المستقيمة السليمة ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ ﴿٣﴾ .
﴿ ولا أقول لكم إلى ملك ﴾ وهذا تقرير وإخبار عن حقيقة الأنبياء ، إنهم بشر أوحى الله إليهم بالرسالة لأن طبيعة الملائكة لا تتكيف مع حياة البشر ، فالملائكة أجسام نورانية تتشكل بالأشكال اللطيفة ، لا يأكلون ولا يشربون ، ولا يتزوجون ولا يتناسلون ولا ينامون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، التسبيح عندهم كالتنفس عندنا . قال ﷺ :
﴿ أطت السماء أطاً ، وحُق لها أن تنط ، مامن موضع قدم فى السماء إلا وفيه ملك قائم أو رাকع أو ساجد لله ﴾ ﴿٤﴾ . وقد قال سبحانه وتعالى عنهم ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ ﴿٥﴾ . وقال عنهم ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ ﴿٦﴾ .

وقد شاءت الحكمة الإلهية أن يكون الأنبياء بشراً ليقفوا على مشاكل البشر ، ويعيشوا معهم ليلهم ونهارهم ويأكلوا ويشربوا ويتزوجوا ويتناسلوا ، وقد ردَّ الله سبحانه وتعالى افتراءات أهل الباطل الذين قالوا للأنبياء : ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ ﴿٧﴾ . وقال على لسان رسوله ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾ ﴿٨﴾ .

فليست البشرية طعنا فى الرسالة مادامت قد اتصفت بصفات الكمال البشرى . فالأنبياء قد اتصفوا بالصدق والأمانة والتبليغ والفظانة ، وأحاطهم الله بالعصمة ، فحفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بأى أمر قد نهى الله عنه . وقد ردَّ الله تعالى على هؤلاء المنكرين فقال : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ ﴿٩﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلى ﴾ : هذا التزام بمنهج السماء لا يحيد عنه الأنبياء جاء فى

(١) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة الجن .

(٢) الآية ٦٥ من سورة النمل .

(٣) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف .

(٤) أخرجه الترمذى فى الزهد (٩) . وابن ماجه فى الزهد (١٩) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٧٣) .

(٥) الآية ٢٠ من سورة الأنبياء .

(٦) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنبياء .

(٧) الآية ١١ من سورة إبراهيم .

(٨) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

(٩) الآية ٩٥ من سورة الإسراء .

الحديث القدسي الجليل : (صدق عبدى فيما يبلغ عنى) .

والصدق فى الأنبياء صفة أصيلة وقاعدة قوية وجليلة . قال تعالى فى حق خاتم الأنبياء : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ ^(١) . وقال تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ ^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ : ليس العمى والبصر هنا بالمعنى الحسى إنما المقصود بهما الضلالة والهدى . قال تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ ^(٣) . وقال تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ ^(٤) . وقال جل شأنه : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ ^(٥) .

ولما كُفَّ بصر عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال :

إن أذهب الله من عيني نورهما ففى فؤادى وعقلى منهما نور
عقلى ذكى وقلبى ماحوى دخلا وفى فمى صارم كالسيف مشهور

وإنما يعبر عن الضلال بالعمى لما فيه من حيرة . وقد نعى الله تعالى على هؤلاء ما هم فيه من حيرة . قال تعالى : ﴿ كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا . قل إن الهدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ ^(٦) .

إن أمرهم لعجيب وأى عجب إذ كيف يحارون وقد أرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وأنزل لهم كتابا يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ووهبهم عقولا ليميزوا بها الظلمات من النور أفلا يتفكرون ؟ أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يعقلون ؟ قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض .

قوله تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلمهم يتقون ﴾ : المقصود بالإنذار الإخبار بما يبعث الخشية والخوف من عقاب الله ، فمن خاف سلم ومن ذاق حلاوة الإيمان عرف ، ومن حُرِمَ الحرف . والإنذار بالقرآن خير إنذار ، ثم من هؤلاء الذين يُنذَرُونَ ؟ إنهم الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم . قال تعالى : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ ^(٧) . وقال جل شأنه : ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾ ^(٨) .

(١) الآيات ٤٤ - ٤٦ من سورة الحاقة . (٤) الآية ١٩ من سورة الرعد . (٧) الآيات ٤٥ من سورة النازعات .
(٢) الآية ٣ ، ٤ من سورة النجم . (٥) الآية ٧٢ من سورة الإسراء . (٨) الآية ١٨ من سورة الشورى .
(٣) الآية ٤٦ من سورة الحج . (٦) الآية ٧١ من سورة الأنعام .

وحال المؤمن دائرة بين الخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، والوعد والوعيد ﴿١﴾ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴿٢﴾ .

إن هؤلاء الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم ليس لهم وليٌ ولا شفيع غير الله ، فهم إذا استعاذوا استعاذوا بالله وإذا سألوا سألوا الله ، وإذا استعانوا استعانوا بالله ، وإذا توكلوا توكلوا على الله . فليس لهم سوى الله لذلك يقولونها بصدق ووفاء ﴿٣﴾ إياك نعبد وإياك نستعين ﴿٤﴾ .

يارب حبك في دمي وكياني نور أغرّ يذوب في وجداني
أنا لا أضام وفي رحابك عصمتي أنا لا أخاف وفي رضاك أمان

إنهم جددوا السفينة لأن البحر عميق ، وأكثروا الزاد لأن السفر طويل ، وأخلصوا العمل لأن الناقد بصير ، وخففوا الحمل لأن العقبة كثود ، وصاموا عن الدنيا وأفطروا على الموت ، وأعدوا الزاد لليلة صباحها يوم القيامة .

أنذرهم بالقرآن لعلهم يتقون التقوى محلها الصدر وليس هناك سلاح أقوى من التقوى .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذي يأتي قريب ولكن الذي يمضي بعيد

قوله تعالى ﴿٥﴾ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فطردهم فتكون من الظالمين ﴿٦﴾ .

روى أحمد وابن جرير والطبراني في جماعة آخرين عن عبد الله بن مسعود قال : مر الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ نحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك . فأنزل الله فيهم ﴿٧﴾ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا ﴿٨﴾ إلى قوله تعالى ﴿٩﴾ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴿١٠﴾

عندما تقاس القيم بالماديات فقد اختلَّت معاييرها ، وعندما توزن المبادئ بالدرهم والدينار فقد اهتزت مقاييسها ، ومن ثَمَّ فإن الدين الذي وزن به الإسلام القيم كان أدق من ميزان الذهب ، إنه ميزان التقوى : ﴿١١﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله على كل شيء قدير ﴿١٢﴾ ليس الغنى معكم ، بل مع الذين هم على صراطهم يسرون ﴿١٣﴾ أولئك هم الذين هم على صراطهم يسرون ﴿١٤﴾ ليس الغنى معكم ، بل مع الذين هم على صراطهم يسرون ﴿١٥﴾

(١) الآيات ٥٧ - ٦١ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٤ من سورة النافثة . (٤) الآية ١٣ من سورة الحجر .

ﷺ فقال الرسول لأصحابه : ماتقولون في هذا ؟ قالوا : يا رسول الله : هو حرئٌ إذا قال أن يستمع له ، وإذا خطب أن يُزوج وإذا شفع أن يُشفع ثم مرَّ رجل فقير فقال الرسول لأصحابه : وما تقولون في هذا ؟ قالوا : يا رسول الله هو حرئٌ إذا قال أن لا يُسمع له ، وإذا خطب ألا يُزوج ، وإذا شفع ألا يُشفع فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسى بيده إن هذا الفقير خير من ملء الأرض مثل هذا الغنى ﴿١﴾ .

لقد قالوا لرسول الله ﷺ : إن أردتنا أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الصعاليك من مجلسك ، فجاء الجواب من قبل الحق جلَّ جلاله : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتَّبَعَ هواه وكان أمره فرطاً ﴾ ﴿٢﴾ . فما كان من رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه إلا أن بسط لهم رداءه وأجلسهم عليه وقال لهم : مرحبا بمن أوصاني ربي بهم خيرا .

لقد كان بلال عبدا مملوكا لأمية بن خلف ، وكان يسومه سوء العذاب فاشتراه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأعتقه ، فكان عمر رضي الله عنه إذا لقي بلالاً قال : ﴿ بلال سيدنا وأعتقه سيدنا ﴾ ﴿٣﴾ .

فإذا ما اختلَّت موازين الناس واهتزت القيم في أنفسهم قاسوا الأمور بمقاييس المادة فصارت كل سيئة للغنى في نظر الناس حسنة ، وكل حسنة للفقير في نظر الناس سيئة . فالغنى إذا كان بخيلاً قالوا إنه متزن ، وإذا كان أبكم قالوا إنه عاقل ، وإذا كان جبانا قالوا إنه رزين .. والفقير إذا كان كريماً قالوا إنه متلاف وإذا كان فصيحاً قالوا إنه ثرثار ، وإذا كان شجاعاً قالوا إنه متهور ..

وهكذا الدنيا إذا أقبلت على إنسان خلعت عليه محاسن غيره ، فإذا أعرضت عنه سلبته محاسن نفسه ، وإذا كانت الرياح مواتية باض الحمام على الوتد فإذا صارت عاصفة مدمرة بال الحمار على الأسد .

يمشى الفقير وكل شيء ضده	والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه ممقوتا وليس بمذنب	ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت رجل الغنى	حنت إليه وحركت أذناها
وإذا رأت يوما فقيرا ماشيا	نبحت عليه وكشَّرت أنيابها

لقد جاء الإسلام لبنا خالصا سائغا للشاربين فسوى في الحقوق والواجبات بين السوق والملوك فالناس من جهة التصوير أكفاء ، لافضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب .. قيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه : ابن من أنت يا سلمان ؟ فقال : (أنا ابن الإسلام) ﴿٤﴾ نعم يا سيدى :

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى . اتكالا على النسب

(١) أخرجه البخارى في النكاح (١٥) وفي الرقاق (١٦) . وابن ماجه في الزهد (٥) . (٢) الآية ٢٨ من سورة الكهف .

(٣) أخرجه البخارى في فضائل أصحاب النبي (٢٣) . (٤) أخرجه الإمام أحمد في (٥ : ١٢٨) .

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد حُط بالشرك النسيب أبو لهب

قيل لبلال بن رباح رضى الله عنه : يا بلال من أبوك ؟ فقال : أنا ابن الذى أسجد الله له الملائكة ..

هذا هو الإسلام يحترم أهل التقوى ويجل أهل الصلاح . قال ﷺ : (من أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راعمة . ومن أصبح وهمه الدنيا فرّق الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه ولا ينال من الدنيا إلا ما كتب الله له)^(١) .

عش راضياً واترك دواعى الألم واعدل مع الظالم مهما ظلم

نهاية الدنيا فناء فعش فيها كريماً واعتبرها عدم

إن هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي أى أول النهار وآخره : والمراد فى كل وقت سواء أكان المقصود بهذا الدعاء صلاة أو ذكراً أو مطلق العبادة فإنهم لا يتغنون من وراء ذلك ولا يريدون إلا وجه الله ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾^(٢) ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾^(٣) .

لقد قالوا لنبى الله نوح عليه السلام : ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادی الرأي ﴾^(٤) . وقالوا له : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾^(٥) فما كان جوابه إلا أن قال لهم : ﴿ وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على رى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين ﴾^(٦) .

قال تعالى : ﴿ فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ : وهذا نعريض بأهل الجاهلية الذين احتقروا الضعفاء وغمطوهم حقهم وقال قائلهم :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرا وطينا

وحاشا رسول الله أن يطرد الضعفاء فهو حبيبهم الذى قال : (طوبى لمن عاشر أهل العلم والحكمة وخالط أهل الذل والمسكنة) . هو الأُمى الذى علّم المتعلمين واليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب البائسين ، والفقر الذى قاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط إلى شاطئ النجاة ومرفاً المفلحين . جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، ومن عبّاد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم .

إن الله تعالى جعل هذه الدنيا دار ابتلاء ليختبر الأقوياء بالضعفاء والأغنياء بالفقراء ولو شاء ربكم لجعل الناس أمة واحدة . ولقد صدق الله تعالى وهو يقول : ﴿ ليلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾^(٨) . وإذ يقول :

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد (٢) . (٤) الآية ٢١ من سورة الطور . (٧) الآيات ١٢ - ١٥ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ٥٢ من سورة الأنعام . (٥) الآية ٢٧ من سورة هود . (٨) الآية ٢ من سورة الملك .
(٣) الآية ٣٨ من سورة المدثر . (٦) الآية ١١١ من سورة الشعراء .

﴿ وكذلك فتنّا بعضهم ببعض ﴾^(١) أى اختبرنا بعضهم ببعض وامتحانهم . قال تعالى : ﴿ وجعلنا بعضهم لبعض فتنة أتصبرون . وكان ربك بصيراً ﴾^(٢) . ثم يبين تعالى الحكمة البالغة فى قوله : ﴿ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ أى أفصلّهم علينا وهم فقراء ونحن أغنياء ؟ فيأتى الجواب الصحيح والرد الصريح : ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ . ثم يأتى البيان فى آية أخرى ليكون نوراً على نور : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ، ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، وليبوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون . وزخرفنا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾^(٣)

مرحبا بالمؤمنين

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمَجْرِمِينَ ﴿٥٦﴾

المفردات : ﴿ سلام عليكم ﴾ : السلام السلامة من العيوب والآفات ، وهو الأمان والتحية والقبول ، وهو من أسمائه سبحانه وتعالى . ﴿ كتب ﴾ : فرض وأوجب ، ﴿ بجهالة ﴾ : الجهالة السفه والخفة التى تقابل الحكمة والعقل ، ﴿ ولتستبين ﴾ : تتضح وتظهر .

وهذا مزيد تكريم من الله الكريم لأهل الإيمان والتقوى : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) والسلام تحية الإسلام وقد حيا الله تعالى نبيه بالسلام فقال : (السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته) . فلم يكن رد النبى على ربه : السلام عليك يا الله لأن الله هو السلام إنما جاء الرد يفيض رحمة ووفاء ويشع نوراً وبهاء : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين : إنه لم ينس إخوانه الأنبياء عندما قال : السلام علينا ، كما لم ينس أتباع الأنبياء من الصالحين ، ولا عجب فهو الرحمة المهداة والنعمة المسداة . لما سمع أعرابيا يقول : (اللهم ارحمنى ومحمداً ولا ترحم أحداً سوانا . قال له يا أعرابى لقد حجرت واسعا)^(٤) .

إن السلام هو تحية الله للمؤمنين ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً ﴾^(٥) واللجنة دار

(٤) أخرجه البخارى فى الأدب (٢٧) .

(٥) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .

(١) الآية ٥٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٢٥ من سورة الفرقان .

(٣) الآيات ٣٢ - ٣٥ من سورة الزخرف .

السلام . قال تعالى : ﴿لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾^(١) . وتحية الملائكة لأهل الجنة سلام قال تعالى : ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾^(٢) . وليلة القدر سلام هي حتى مطلع الفجر . وقد أمر النبي ﷺ إذا جاءه هؤلاء المؤمنون أن يحييهم بالسلام .

قوله تعالى : ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ هذا فضل من الله لا يدانيه فضل ، ونعمة لا يلحق بها ولا يُشَق لها غبار . فشعاع من رحمة الله تطفئ غضب ملوك أهل الأرض ، ولحمة من غضبه تزهق الروح ولو انغمست في نعيم الدنيا ، فيا إلهي إن لم أكن أهلاً لبلوغ رحمتك ، فإن رحمتك أهل لأن تبلغني ، فأنت القائل : ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ وأنا شيء فلتسعني رحمتك .

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير الآثم

قوله تعالى : ﴿كتب ربكم على نفسه﴾ أى أن ذلك بمحض فضله ، لم يلزمه به أحد . فهو الواحد القهار الفاعل المختار . فيأمن كتبت على نفسك الرحمة :

أدعوك ربّ كما أمرت تضرعاً فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم مالى إليك وسيلة إلا الرضا وجميل عفوك ثم إني مسلم

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى غلبت غضبى)^(٣) .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش إن رحمتى سبقت غضبى وأنا أرحم الراحمين فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً مكتوب بين أعينهم عتقاء الله﴾^(٤) .

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عاصم بن سليمان عن أبى عثمان النهدي عن سلمان في قوله ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ قال إنا نجد في التوراة عطفتين أن الله خلق السماوات والأرض وخلق مائة رحمة أو جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة قال فيها يتراحمون وبها يتعاطفون وبها يتبذلون وبها يتزاورون وبها تحن الناقة وبها تنج البقرة وبها تشغو الشاة وبها تتتابع الحيتان في البحر ، فإذا كان يوم القيامة جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده ورحمته أفضل وأوسع .

(١) الآية ١٢٧ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٢٤ من سورة الرعد .

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (١٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢ ، ٣) . وأبو داود في الجهاد (١٢٦) .

قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل (أتدرى ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) ثم قال ﴿ أتدرى ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم ﴾^(١). رواه الإمام أحمد .

قوله تعالى : ﴿ أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ﴾ : قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل . والجهالة هي السفه وخفة العقل . فالعاقل هو الذى يوظف عقله فيما خلقه الله له فيميز الخبيث من الطيب ، وعجبت لامرئ يقول فيه القائل :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حيك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وما أعظم رحمتك يا إلهى : لا تقنط أحداً من رحمتك فأهل ذكرك أهل عبادتك وأهل طاعتك أهل محبتك ، وأهل شكرك أهل زيادتك ، وأصحاب المعاصي لا تقنطهم من رحمتك ، إن تابوا إليك فأنت حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنت طيبهم . أنت حبيبهم لأنك تحب التوايين وتحب المتطهرين . وأنت طيبهم بتبليهم بالشدائد لتطهرهم من الذنوب والخطايا ، وأنت أرأف بعبادك من الأم بولدها . إذا قال العبد : يارب قد أخطأت ، قلت له يا عبدى وأنا قد سترت فإذا قال يارب قد تبت ، قلت له : وأنا قد غفرت . بابك يقبل المطرودين ويعفو عن المذنبين . تبسط يدك بالليل ليتوب مسيء النهار ، وتبسط يدك بالنهار ليتوب مسيء الليل .

أنت الذى تهب الكثير وتجبر القلب الكسير وتغفر الزلات
وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات

التوبة عزم وإقلاع وندم وأداء للفرائض ، وتصميم على عدم العود ، والإصلاح بناء لكل قيمة كريمة وإيجابيات فى الخير . فمن كان شأنه كذلك من التوبة والإصلاح فقد استحق مغفرة الله ورحمته .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ مثل ذلك الذى سبق من الآيات البينات الواضحات نفصل ونوضح ليتبين الرشد من الغي ولتتضح سبيل المجرمين ، وينكشف خداعهم ، فالحق واضح ، والمنادى صائح والطريق لأصح ، وقد بدا الصبح لذى عينين : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾^(٢) . ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين . مالكم كيف تحكمون ؟ ﴾^(٣) . أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾^(٤) .

﴿ وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾^(٥) .

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٤٦) . ومسلم فى الإيمان (٤٨ ، ٤٩) .

(٢) الآية ٢٨ من سورة ص . (٣) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة القلم . (٤) الآية ٢٩ من سورة الكهف . (٥)

الرد على المعاندين

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَ كُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

المفردات : ﴿ نهيت ﴾ : صرفت وزجرت ﴿ بينة من ربي ﴾ : البينة كل ما يتبين به الحق من الحجج العقلية والآيات الحسية . ﴿ يقض ﴾ : يذكر ﴿ الفاصلين ﴾ : الفصل القضاء والحكم .
يا أيها الرسول قل لهؤلاء المشركين . إني نهيت وصرفت عن عبادة ما تدعونهم وتطلبون منهم الخير ودفع الضر من صنم أو وثن أو عبد مهما كان شأنه صرفت عن هذا كله بالآيات القرآنية والآيات الحسية . وما ركب الله في من عقل رشيد وروح طيبة طاهرة وفطرة سليمة بعيدة عن أسر التقليد وقيد الجهل وذاء الحسد .

قل لهم لا أتبع أهواءكم فإن عبادتكم غير الله سندها وحجتها الهوى فقط ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ ^(١) أما عبادة الله فلها الحجة البالغة والبرهان الساطع .

وفي كل شيء له آية ————— تدل على أنه الواحد

وعبادة غير الله ضلال وشرك فإن اتبعتمكم فقد ضللت إذا وما أنا في عداد المهتدين وفي هذا تعريض بأنهم ليسوا من الهداية في شيء وهم في ضلال مبين قل لهم إني فيما أخالفكم فيه من عبادة غير الله وفيما أدعوكم إليه من عبادة الله على بينة من ربي وحجة واضحة لا تقبل شكاً ولا جدلاً ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ ^(٢) فالقرآن هو الحجة البينة والمعجزة الخالدة والآية الباقية التي تقوم مقام قول الله :

صدق عبدى فى كل ما يبلعه عنى وأما أنتم فقد كذبتكم بالقرآن واتبعتم الشيطان وكفرتم بالرحمن ، ياللعجب تكذبون بالقرآن . وما دعا إليه وتدعون إلى اتباع الهوى والضلال والتقليد الأعمى فبئس ما تصنعون !

وكانوا يشتبهون فى القرآن ورسالة النبى ﷺ لأن الله لم ينزل عليهم ما طلبوا فأزال القرآن هذا بقوله للنبي ﷺ .

(٢) الآية ٢ من سورة البقرة .

(١) الآية ٢٣ من سورة الزخرف .

قل لهم ما عندي ما تستعجلون به وتطلبونه على عجل من الله ولم أقل لكم إني أقدر على هذا ، وما الحكم في هذا إلا الله الواحد القهار ، وكل شيء عنده بمقدار ، والله يقص القصص الحق في وعده ووعيده ، وهو خير الحاكمين .

قل لهم لو أن عندي ما تستعجلون به ، ولو أن الله أمكنني من إيقاع العذاب بكم وجعله من قوتي الكسبية لأوقعته عليكم ، ولقضى الأمر بيني وبينكم ، والله قد وعدني النصر ووعدته الحق وقد تحقق ما وعد .

وهناك حديث عن أبي هريرة يفيد أن ملك الجبال ناداه وقال يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وقد بعثنى ربك لك لتأمرني بأمرك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين فقال النبي ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يؤمن بالله .

والمخلص في هذا : أن هذه الآية دلت على سؤا لهم العذاب وجوابه ﷺ والحديث ليس فيه سؤال بل عرض عليه ملك الجبال فلماذا استأني بهم وترفق عليهم والله أعلم بالظالمين . كيف يعاقبهم ؟ ومتى يعاقبهم وعلى أي صورة يكون جزاؤهم ﴿ ول لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

كمال علمه سبحانه وتعالى

* وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَرُى وَلَا رَاطِبٍ وَلَا يَاسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٠٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿١١١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿١١٢﴾

المفردات : ﴿ مفاتيح ﴾ : جمع مفتاح وهو المفتاح الذي تفتح به الأقفال . ﴿ يتوفاكم ﴾ : التوفي أخذ الشيء وافيا كاملا ، والتوفية إعطاء الشيء تاماً وافيا وهو يطلق على الموت والنوم . ﴿ جرحتم ﴾ : كسبتم بالجوارح ويستعمل اللفظ في الشر والخير والاجترار فعل الشر خاصة . ﴿ يبعثكم ﴾ : يوقظكم من النوم . ﴿ حفظة ﴾ : هم الكرام الكتبة من الملائكة .

المناسبة

طلبوا من النبي آيات خاصة ، كما تقدم ، واستعجلوا بها فرد القرآن عليهم بأن الكل في قبضته وهو القاهر فوق عباده ، ولا يملك الرسول شيئاً ثم بين هنا أن ما استعجلوه به ليس فيما يدخل في علم النبي حتى يخبرهم في أى وقت يقع ، وإنما هو مما استأثر الله بعلمه ، وهو العليم بكل شيء .

عنده وحده سبحانه ما يتوصل به إلى الغيب المحجوب عن الكل ، أى عنده علم الغيب ، إذ العلم صفة تنكشف بها لله سبحانه وتعالى معلومات الغيب والشهادة ، وإنما أطلق المفتاح وأراد العلم للإشارة إلى أن الغيب المستور في أماكن بعيدة لا يصل إليها أى مخلوق ، كالحزائن المغلقة بالأبواب والأغلاق ، ولها مفاتيح محكمة وقيل المعنى وعنده خزائن الغيب على أن المراد بالمفاتيح الخزائن .

لا يعلمها إلا هو وحده الذى يعلم السر وأخفى وهذه الجملة إذن توكيد للجملة السابقة ، وهو يعلم كل ما فى البر وكل ما فى البحر ، فهو يعلم المشاهدات كما يعلم المغيبات ، والله يعلم ما تسقط من ورقة فى أى زمان أو مكان ، فهو يعلم الأحوال المتعلقة بالذوات السابقة إذ سقوط الورق حال فى الأحوال ، وذكره إشادة إلى جميع الأحوال . وليست هناك حبة فى ظلمات الأرض السحيقة ، وأغوارها البعيدة ، ولا شيء رطب ، ولا شيء يابس ، أى ولا حى بالمعنى العام ولا يابس إلا فى مكنون علمه الثابت الذى لا يمحو ، كما أن الشيء المسجل المكتوب كتابة لا يمحو ، وقيل المعنى كل ذلك فى اللوح المحفوظ والله أعلم بكتابه . والخلاصة أنه سبحانه يعلم الغيب والشهادة ، والأحوال الظاهرة والباطنة ، والرطوبة واليابسة . أما أنتم أيها الناس .. فالله يتوفاكم بالليل أى ينيمكم فيه ، ويقبض أرواحكم إليه ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، ويعلم ما كسبتم فى النهار علماً سابقاً على عملكم ، فهو يعلم أن منكم من يكفر ، ومنكم من يعصى ربه ، ثم يعد هذا الموت الأصغر الذى فيه يقبض أرواحكم إليه ويعلم أعمالكم بعد ما يبعثكم فى الدنيا نهراً ليعمل كل عمله ، وليقضى أجل مسمى عنده ، وعمر محدود لكل منكم ثم إليه مرجعكم بالموت الأكبر لا إله غيره ، ثم ينبئكم والمراد يجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وهو القاهر فوق عباده المتسلط عليهم ، المتصرف فيهم ، يفعل بهم ما يشاء إيجاباً وإعداماً ، وإحياء وإماتة . وهو يرسل عليكم حفظة من الملائكة يحفظون أعمالكم ويحسونها عليكم ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ سورة الانفطار . سبحانه الله .. ما أعجب شأننا .. علينا رقيب وعتيد .. يحصون علينا أعمالنا ويكتبون ولا يغفلون ، ومع هذا نعصى الله جهرة وسراً ؟ .. سبحانه أنت أرحم الراحمين ..

ولعل سائلاً يقول : ما الحكمة فى الحفظة الكتبة والله أعلم بكل شيء والجواب أن المكلف إذا عرف هذا كان أزجر له وأبعد عنه الفحشاء والمنكر ، وأقرب إلى عقل بعض الناس ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمَجْرِمِينَ مَشْفِقِينَ ﴾ مآ فيه (١) .

يرسل الحفظة الكرام البررة يحصون الأعمال مدة الحياة حتى إذا انتهى الأجل وتم القضاء ، وجاءت أسباب الموت ومقدماته ، توفته رسلنا وهم ملك الموت وأعوانه ، والحال أنهم لا يفرطون ولا يقصرون بزيادة أو نقصان ، ثم ردوا بعد هذا جميعاً إلى الله وإلى حكمه ، وما الحكم الحق الذي يعطى بالعدل إلا له ، له الحكم وإليه الأمر ، لاراداً لقضائه ولا معقب لحكمه ، وهو أسرع الحاسبين يحاسب الكل في أقل وقت وأسرعه لا يشغله شأن عن شأن وفي الحديث (إن الله يحاسب الكل في مقدار حلب الشاة) .

من مظاهر القدرة والرحمة

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مَنْ ظَلُمْتِ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

المفردات : ﴿ ظلمات البر والبحر ﴾ : ظلمات الليل والسحب والمطر ، وقيل المراد ظلمات معنوية : ﴿ تضرعاً ﴾ : التضرع المبالغة في الضراعة والتذلل والخضوع . ﴿ خفية ﴾ : بالضم والكسر الخفاء والاستتار . ﴿ الكرب ﴾ : الغنم الشديد .

يسلك القرآن المسالك المتعددة لغرس شجرة التوحيد في قلوب العرب ببيان مظاهر القدرة والرحمة بالخلق ، فقال ما معناه : قل لهم : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ؟ ومن ينقذكم من شدائد الأيام وهولها ؟ ومن ينير لكم السبيل إذا غم الطريق وأظلم ، ومن يسكن على كل شيء ، تدعونه متضرعين متذللين مع رفع الصوت والبكاء ، وقد يكون في السر والخفاء ، قائلين لئن أنجيتنا من هذه الظلمات لنكونن ممن يوحدك ويشكرك ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم برح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه ل نكونن من الشاكرين ﴾ (١) قل لهم : الله ينجيكم من هذه الأحوال ومن كل كرب وغم ، ثم أنتم بعد هذا تشركون بالله غيره ، ومن هذا نفهم أن الإنسان بطبيعته يلجأ إلى الله في الشدة والمكروه وفي النجاة ينسى نفسه ويعود إلى جهنه .

قدرة الله على إيقاع العذاب على العصاة

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ

قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

المفردات : ﴿ يلبسكم ﴾ : من اللبس والمراد يخلط أمركم عليكم خلط اضطراب واختلاف وأصل التركيب يلبس عليكم أمركم . ﴿ شيعاً ﴾ : جمع شيعة وهم كل قوم اجتمعوا على أمر واتفقوا فيه . ﴿ نصرف ﴾ : نحوها من نوع إلى آخر من فنون الكلام . ﴿ يفقهون ﴾ : يفهمون بالدليل والحجة . ﴿ مستقر ﴾ : وقت استقرار وحصول .

قل لهؤلاء المشركين : الله هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً لا يعرف كنهه ولا يقف على حقيقته إلا الله سبحانه وتعالى ، ينزل عليكم من فوقكم كالرجم بالحجارة والآفات أو يصعد إليكم من تحتكم كالزلازل والبراكين والخسف المعهود في الأمم السابقة أو يخلط أمركم عليكم خلط اضطراب واختلاف ، حتى تكونوا فرقاً وشيعاً وأحزاباً وجماعات ، كل فرقة لها اتجاه خاص ولون خاص ، تتقاتلون وتتحاربون ، ويذيق بعضهم بأس بعض شدته . حتى يقتل بعضهم بعضاً . وعن ابن عباس المراد بمن فوقكم في الآية أمراؤكم ، ومن تحت أرجلكم أي عبيدكم وسفلكم ، أنظر يا من يتأتى منه النظر كيف نصرف الآيات ، ونقلها على وجوهها المختلفة ، لعلمهم بهذا يفقهون الحق ، ويدركون السر ، ولا شك أن التنويع في الأداء وطرق الأبواب في الحجج ، سبيل إلى الفهم وإدراك الحقائق ، ولكن عند من ينظر النظر البريء الخالي من الحجب الكثيفة الموروثة كالتقليد .

وقد كذب بالقرآن قومك ، وهو الحق الذي لا شك فيه ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . قل لهم لست عليكم بوكيل : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾^(١) لكل نبأ مستقر ، تظهر فيه حقيقته ، ولكل أمة أجل ، ولكل أجل كتاب تعلمون به صدق الوعد والوعيد ﴿ سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾^(٢) .

والعذاب في الآية ورد منكراً فيشمل المجاعة والقحط ، والصيحة والرجفة والريح الصرصر والزلازل والحجارة من سجيل والبراكين ويشمل ما تلقى الطائرات وما تقذفه المدافع وما في السفن والغواصات من الطوربيد والألغام التي تنفجر فتبيد الناس ، وما القنابل الذرية عنكم ببعيد . روى عن ابن عباس من طريق أبي بكر بن مردويه عن النبي ﷺ قال : (دعوت الله أن يرفع عن أمتي أربعاً فرفع عنهم اثنتين وأنى أن يرفع اثنتين دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء ، والخسف من الأرض وألا يلبسهم شيعاً ، وألا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع عنهم الخسف والرجم ، وأنى أن يرفع الآخرين)^(٣) .

(١) الآية ٤٥ من سورة ق . (٢) الآية ٥٣ من سورة فصلت . (٣) أخرجه الإمام أحمد في (١٣٥ : ٥) (٣٢٥) .

وقد تأكد كلام الرسول ﷺ فيها هي ذى الأمة المحمدية قد وقاها الله من الخسف والرجم ، وأكرمها لأجل نبينا فلم يعذبها بعذاب الاستئصال . وأما الخلافات الحزبية والفرق والشيعة ، وقتال بعضنا لبعض فظاهر للعيان ولا يزال الشر يأتينا من هذا الباب وأن بعضنا سبب الويل بنفاقه مع المستعمر واتحاده معه واستخدام الأجنيى له وما الحوادث التى ترى علينا ونشاهدها ببعيدة . وفى حديث ثوبان (وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة ، وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيخ بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً)

وما زال ملك للمسلمين إلا بسبب نزاعهم وخلافهم ، واتصال بعضهم بالأجنيى العدو اللدود .. تنبهوا يا قوم وارجعوا إلى دينكم وقرآنكم فالخير لا يمكن أن يكون إلا فيه وتذكروا . وإنما يتذكر أولو الألباب .

المستهزئون بالقرآن وجزاؤهم

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ ۚ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

المفردات : ﴿ يَخُوضُونَ ﴾ : أصل الخوض الدخول فى الماء ثم استعمل فى غمرات الأشياء أى مجاھلها تشبيها لها بغمرات الماء ، والمراد الاندفاع فى الحديث والاسترسال فيه والدخول فى الباطل مع أهله . ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ : انصرف عنهم . ﴿ الذِّكْرَى ﴾ : التذكر . ﴿ وَلَكِنْ ذِكْرٌ ﴾ : المراد تذكيراً . ﴿ تُبْسَلَ نَفْسٌ ﴾ : البسل حبس الشيء ومنعه بالقوة ومنه أسد باسل ، وشجاع باسل أى يحمى نفسه ويمنعها ، المراد حبسهم فى النار ومنعهم من الثواب . روى عن سعيد بن جبیر أن هذه الآية نزلت فى المشركين المستهزئين بالقرآن والنبي ﷺ .

وإذا رأيت يا محمد وكذا كل مسلم . الذين يخوضون فى آياتنا بالكذب والاستهزاء ، فأعرض عنهم ، ولا تجالسهم حتى يخوضوا فى غير حديث الكفر والاستهزاء ، ومثلهم من يخوضون فى القرآن بتأويله تأويلاً باطلاً يوافق أهواءهم واتجاههم ، لاتجالسهم وابتعد عنهم ، وقد روى هذا الرأى عن ابن عباس

رضى الله عنه ، ولعل السر في ذلك أنك إذا أعرضت عنهم وقمت من مجلسهم كان أدل على عدم مشاركتهم فيما يقولون ، وعلى عدم الرضا عما يفعلون وهذه بلا شك أدعى للكف عن الخوض والاستنزاء غالباً ، وإذا خاضوا في غير ذلك الحديث فلا مانع من مجالستهم والتحدث إليهم . قال القرطبي : ودل بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكراً ، وعرف أنه لا يقبل منه و عظماً ولا نصيحة فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر ولا يقبل عليه وإن أنساك الشيطان قبح مجالستهم والنهي عنها ، ثم تذكرتها فلا تقعد بعدها مع هؤلاء القوم الذين ظلموا أنفسهم بالكذب والاستنزاء .

وهنا بحث بسيط :

هل يجوز على النبي ﷺ النسيان ؟ وإذا جاز فهل في كل شيء أم في شيء خاص ؟ والجواب عن الأول يجوز النسيان عليه بغير وسوسة من الشيطان ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾^(١) وقد ثبت وقوعه من آدم ﴿ فَنَسِيَ ﴾ ولم نجد له عزماء ﴿^(٢) ومن موسى ﴿ لا تأخذني بما نسيت ﴾^(٣) وثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ سها في الصلاة وقال (إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني)^(٤) .

إنساء الشيطان للإنسان بعض الشيء ليس من قبيل السلطان عليه والتصرف فيه ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾^(٥) والجواب عن الثاني أن الصحيح أن النبي ﷺ لا ينسى فيما يبلغه عن ربه ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾^(٦)

وقيل يجوز أن ينسى والله ينبهه حتماً . وما على الذين يتقون الله ويتركون غيرهم يخوضون في الباطل ويستنزئون بالقرآن من شيء أبداً ولكن إذا تركوهم بعد الموعظة وأعرضوا عنهم فهم يذكروا ومنهم بهذا لعلمهم يتقون الله فلا يخوضون في غمرات الشرك مرة ثانية حياءً ممن يجالسهم أو كراهة إساءتهم .

وقيل المعنى ولكن عليهم أن يذكروهم ذكرى فلعلهم يتقون الله . يا أيها الرسول . دع الذين اتخذوا دينهم الذي كان يجب أن يتبعوا ويهتدوا به اتخذوه لعباً ولهاً فإنهم لما عملوا هذه الأعمال التي ختم الله بها على قلوبهم ودس بها نفوسهم ولم يعملوا ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون فقد أضاعوا عمرهم فيما لا يفيد وهذا هو اللعب وشغلوا أنفسهم عن الجد والعمل المفيد ، وهذا هو اللهو وغرتهم الدنيا وغرهم بالله الغرور ، أعرض عنهم ، ولا تبال بأمثال هؤلاء ، وذكر به من يخاف وعيد ، خوف أن تبسل كل نفس في الآخرة بما كسبت ، وترهن بما عملت ، وتحبس بما قدمت ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾^(٧) ليس لكل نفس من دون الله ولي يلي أمرهم ويدفع عنها شرها وليس لها شفيع يشفع لها ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾^(٨) وكيف يكون غير هذا وإن تفقد النفس نفسها بكل فدية وعدل يتساوى مع الذنب

(١) الآية ٢٤ من سورة الكهف . (٢) الآية ١١٥ من سورة طه . (٣) الآية ٧٣ من سورة الكهف .

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة (٣١) . ومسلم في المساجد (٨٩) . وأبو داود في الصلاة (١٩٠) . والنسائي في السنن (٢٥) وابن

ماجه في الإقامة (١٣٣) . (٥) الآية ٦٩ من سورة الحل . (٦) الآية ١٦ من سورة القيامة .

(٧) الآية ٣٨ من سورة المدثر . (٨) الآية ١٨ من سورة غافر .

لا يقبل منها أصلاً ﴿١﴾ واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴿٢﴾ أولئك الذين اتخذوا القرآن هزواً وسخرية واتخذوا دينهم لعباً ولهواً حرّموا الثواب وأسلموا أنفسهم للعذاب وحبسوا في نير العقاب ولهم شراب من حميم وغساق جزاء من ربك وفاقا ولهم عذاب أليم .

الإسلام والشرك

قُلْ أُنَدِّعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُنْتِنَا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

المفردات : ﴿أعقابنا﴾ : جمع عقب وهو مؤخر الرجل وتقول العرب فيمن أحجم بعد إقدام رجع على عقبه ، ونكص وارتد على عقبه ، ورجع القهقري . ثم صار يطلق على كل تحول مذموم . ﴿استهوته الشياطين﴾ : ذهبت بعقله وهواه . ﴿حيران﴾ : تائها ضالا عن الجادة لا يدرى ما يصنع . ﴿الصور﴾ : القرن وهو كالقوق ينفخ فيه فيصعق من في السموات والأرض ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون .

قال السدي : « قال المشركون للمسلمين اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد فأنزل الله عز وجل : ﴿قُلْ أُنَدِّعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي في الكفر (بعد إذ هدانا الله) فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض ، يقول مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثّل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق ، فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض ، وأصحابه على الطريق ، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون : إئتنا فإننا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ . ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق والطريق هو الإسلام » رواه ابن جرير .

ثم قرر سبحانه وتعالى أن هداه هو الهدى الحقيقي الذي لا يزيف عنه إلا هالك . فمن سار على هذا الطريق لا تزل قدمه ، ولا تتغير خطاه ، ومن حاد عنه فهو كالذي استهوته الشياطين بضلالها وعتوها وطغيانها وفجورها ، فصار في الأرض حيران ، وكفى بالحيرة ضلالاً وبهتاناً ، وهل من ابتلى بالحيرة يقر له قرار أو يطمئن له جنان .

وكيف يحار من علم أن القرآن : هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والهادى إلى الصراط المستقيم ، الذى لا تضل به الأفئدة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تملأ الأتقياء .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قِيلاً
لا تذكروا الكتب السوالمف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلاً

قل لهم يا محمد : وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، ونذعن لأوامره . ونتبع أحكامه ، ونسلك طريقه ﴿ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾^(١) . ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾^(٢) ﴿ قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شئ ﴾^(٣) .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا من له عنت الوجوه بأسرها رهباً وكل الكائنات توحده
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنا الجبين الساجد
أنت الإله الواحد الحق الذى كل القلوب له تقرر وتشهد

وكما أمرنا لنسلم لرب العالمين ، كذلك أمرنا بإقام الصلاة ، وتقوى الله ، وأن أقيموا الصلاة واتقوه ، وإقامة الصلاة أداؤها تامة مستقيمة مستوفية شروطها وأركانها ، وإذا كان الناس فى زماننا هذا يعرفون وجوب الصلاة من الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، ويعرفون شروط صحتها كستر العورة ، ودخول الوقت ، والطهارة ، واستقبال القبلة ، إن كان يعرفون ذلك فقد غفل كثير منهم عن معرفة شروط قبولها ، وهى مسألة من الأهمية بمكان ، إذ ما قيمة شئ يؤدى على غير وجه من القبول ، وقد اجتمع شروط قبولها فى حديث قدسى جامع مانع قال تعالى .

﴿ إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، ولم ييت مصراً على معصيتى ، وقطع نهاره فى ذكرى ، ورحم المسكين ، وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب ﴾ ثم يعقب الحديث بعد ذلك مبيناً ما لهؤلاء من الفضل فيقول تعالى ﴿ ذلك نوره كنور الشمس ، أكلاه بعزقى ، واستحفظه ملائكتى ، اجعل له فى الظلمة نوراً وفى الجهالة حلاً ومثله فى خلقى كمثلى الفردوس فى الجنة ﴾ .

فيا ليت قومى يعلمون بما للمصلين من أجر وفضل عند ربهم ولما كان للصلاة تلك المكانة ، فقد بدأ الله بها مكارم الأخلاق ، وكريم الشرائع ، وختمها بها ، وفى سورة المؤمنون يقول تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ،

(١) الآية ١٤ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٦٤ من سورة الأنعام .

(٢) الآيات ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴿١﴾ ثم يختتم الله تلك الصفات النبيلة في الصلاة فيقول ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ .

وفي سورة المعارج يذكر الله المصلين ثم يذكر الصفات التي يتحلى بها المؤمنون ثم يختتمها بذكر الصلاة أيضاً قال تعالى ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً . إلا المصنين . الذين هم على صلواتهم دائمون﴾ ﴿٢﴾ وبعد ذكر صفات المؤمنين يقول تعالى ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ .

قوله تعالى ﴿وهو الذى إليه تحشرون﴾ أى هذا الذى هو جدير بأن تعبدوه وتوحدوه ولا تشركوا به شيئاً ، هو الذى ستحشرون إليه وحده ، فلا ملجأ لكم ولا ملجأ من الله إلا إليه ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ ﴿٣﴾ فالإله المآب والرجعى ، فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر ، واليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .

تالله لو عاش الفتى فى دهره	ألفا من الأعوام مالك أمره
متلذذاً فيها بكل نفيسة	متمتعاً فيها بنعم — عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة	كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى	ببيت أول ليلة فى قبره

إن هذا الإله القادر هو المعبود بحق ، ومن مظاهر عظمته وقدرته أنه خلق السموات والأرض بالحق قال سبحانه ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية﴾ ﴿٤﴾ وقال جل شأنه ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾ ﴿٥﴾ وقال سبحانه ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ﴿٦﴾ .

واذكر أيها المخاطب يوم يقول كن فيكون .

فسبحان من أمره بالكاف والنون وسبحان من يدبر الكون ويفصل الآيات ويخلق ما يشاء ويختار ومن صفات هذا الإله القادر أنه لا يقول إلا الحق ، قوله الحق وله الملك هو الذى يريك آياته وينزل لكم من السماء رزقا ، وما يتذكر إلا من ينيب ، فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

واذكر أيها المخاطب يوم ينفخ فى الصور ﴿فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ ﴿٧﴾ .

(١) الآيات ١ - ٨ من سورة المؤمنون . (٤) الآية ٨٥ من سورة الحجر . (٦) الآيات ٣٨ ، ٣٩ من سورة الدخان .

(٢) الآيات ١٩ - ٢٣ من سورة المعارج . (٥) الآية ١٦ من سورة الأنبياء . (٧) الآيات ١٣ - ١٨ من سورة الحاقة .

(٣) الآية ١٨ من سورة الحاقة .

ومن صفات هذا الإله القادر ﴿ إنه عالم الغيب والشهادة ﴾^(١) ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾^(٢) .

فيا دنيا أين بحارك ، وأين أنهارك ، وأين أشجارك ، وأين قصورك ، أين الجبابرة وأبناء الجبابرة ، أين الذين عاشوا في خير الله وعبدوا غير الله ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار .

ولى في فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان في بحر الحقيقة راق
شخصاً وأشكال تمر وتنقضى تغنى جميعاً والمهيمن باق

﴿ وإنا لنحن نحى ونميت ونحن الوارثون ﴾^(٣) . ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾^(٤) . ﴿ إنا نحن نحى ونميت وإلينا المصير ﴾^(٥) . ومن صفات هذا الإله القادر أنه هو الحكيم الخبير . حكيم تنزه فعله عن العبث خبير أحاط بدقائق الأشياء علماً وأحاط بدقائقها وأحصاها عدداً .

إبراهيم مع أبيه وقومه

* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْنَمَاءَ إِلَهَةٍ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَتَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

المفردات : ﴿ إبراهيم ﴾ : خليل الرحمن وأبو إسماعيل وجد العرب وأبو الأنبياء عليهم السلام جميعاً ، آزر أبو إبراهيم أو عمه وقيل غير ذلك . ﴿ ملكوت ﴾ : ملك الله وسلطانه فيها . ﴿ جن عليه الليل ﴾ : ستره بظلمته . ﴿ كوكبا ﴾ : نجماً مضيئاً . ﴿ أفل ﴾ : الأفول : غيبوبة الشيء بعد ظهوره . ﴿ بازغاً ﴾ : البروغ : ابتداء الطلوع . ﴿ فطر السموات والأرض ﴾ : أخرجها إلى الوجود لا على مثال سابق . ﴿ حنيفاً ﴾ : مائلاً عن الشرك والضلال .

(٤) الآية ٤٣ من سورة مريم .

(٥) الآية ٤٣ من سورة ق .

(١) الآية ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة غافر .

(٣) الآيتان ٢٣ من سورة الحجر .

وهذا مشهد مهيب من مشاهد التوحيد ، وقف فيه إبراهيم موقف العزة بمقام الوجدانية ، فكل الأنبياء عملوا بمعسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾^(١) .

قال ﷺ (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله)^(٢) وقال ﷺ (جددوا إيمانكم قالوا : يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله)^(٣) .

إنها كلمة التوحيد ، عليها نحيا وعليها نموت ، وفي سبيلها نجاهد ، وعليها نلقى الله .

ولقد جاهد إبراهيم أصدق الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، وضرب الشرك في جبهتين من أعتى الجبهات : جبهة الأصنام ، وجبهة الكواكب ، قال لأبيه : ﴿ اتخذ أصناما آلهة ﴾ وسواء أكانت تلك الأصنام بشراً أو حجراً أو حديداً أو معدناً من المعادن فكلها معبودات باطلة ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾^(٤) .

ولقد أخذ إبراهيم يخاطب أباه بالبراهين الساطعة ، والحجج القاطعة : ﴿ اتخذ أصناما آلهة ﴾ هذا استفهام تسيل له الكبد مرارة ، والفؤاد لوعة ، فماذا كان رد أبيه عليه ، اقرأ معي قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه يا أبت لما تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . قال أرغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم . لأن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً . قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيواً . واعتزلكم وماتدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾^(٥) ولما رأى إبراهيم من أبيه إصراراً على ما هو عليه تبرأ منه قال الله تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حلیم ﴾^(٦) .

وهكذا دار الصراع بين الحق والباطل ، وبين سماحة الحق وحماسة الباطل .

وقعت أحداث خطيرة ، فإن إبراهيم ظل صامداً في دعوته لا تؤثر فيه الأحداث الجسام ، لأن الله تعالى أيده بروح من عنده ، وثبت قلبه باليقين ، فقد أعمل بصره وبصيرته في علم اليقين ، وحق اليقين ، وعين اليقين ، فأراه الله ملكوت السموات والأرض ، وما اشتملت عليه الكائنات من أدلة وبراهين تؤكد

(١) الآيات ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٨ ، ٣٣) . ومسلم في الإيمان (١ ، ٢٢ ، ١٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣١٦ ، ٣٢٥) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في (٢ : ٣٥٩) .

(٤) الآية ٩٨ من سورة الأنبياء .

(٥) الآيات ٤١ - ٤٩ من سورة مريم .

(٦) الآية ١١٤ من سورة التوبة .

من قبائح اليهود

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمَّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمَّوْا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

لا يزال الكلام في أهل الكتاب ، وتعداد سوءاتهم وقبائحهم ، خصوصاً اليهود تالله ﴿﴾ لقد أخذنا ﴿﴾ العهد الموثق على ﴿﴾ بنى إسرائيل ﴿﴾ ليؤمنن بالله ورسله ولا يكتُمونه أبداً ، ﴿﴾ وأرسلنا إليهم رسلاً ﴿﴾ يؤكّدون هذا العهد ويجددون هذا الميثاق حتى يكونوا على ذكر منه أبداً ، ولكنهم اليهود ﴿﴾ كلما جاءهم رسول ﴿﴾ من عند الله بما لا تهواه أنفسهم ، لأنهم لا يهون إلا الشر ، ناصبوه العدا ، وساموه سوء العذاب ، وكان سائلاً سأل وقال : ماذا كانوا يفعلون ؟ فأجيب ﴿﴾ فريقاً ﴿﴾ منهم ﴿﴾ كذبوا ﴿﴾ ولم يؤمنوا ﴿﴾ وفريقاً ﴿﴾ منهم كانوا ﴿﴾ يقتلون ﴿﴾ من غير ذنب ولا جريرة ، إلا أنهم كانوا يقولون : ربنا الله لعنهم الله قد ظنوا ظناً يكاد يكون كاليقين : أنهم لا تكون لهم ﴿﴾ فتنة ﴿﴾ أبداً ولا يختبرون بالشدائد أصلاً ، وكيف يكون هذا وهم كما يعتقدون أبناء الله وأحباؤه ، وهم من نسل الرسل الكرام فلا يعذبون بذنوبهم أبداً . ﴿﴾ فعموا ﴿﴾ لهذا ﴿﴾ وصموا ﴿﴾ عن آيات الله التى أنزلها فى كتبه وعموا عما يحصل لهم من الإنذارات والشدائد ، فلم يتعظوا بشيء أبداً ، وصموا عن سماع القوارع من الحجج والآيات البينات ثم تابوا بعد عبادتهم العجل ، وقبل الله توبتهم ﴿﴾ ثم عموا وصموا ﴿﴾ مرة ثانية حيث طلبوا رؤية الله وقتلوا الأنبياء كزكريا ويحيى ، وحاولوا قتل عيسى بن مريم وخالفوا أوامر الله ورسله . وقوله تعالى ﴿﴾ كثير منهم ﴿﴾ يفيد أن أكثرهم العصاة ، وأقلهم المؤمنون الصالحون ، وأما نحن أيها المسلمون حذار حذار من ادعائنا وغرورنا بدون العمل ، حذار حذار من ألا نلتفت إلى التنبهات والقوارع التى تصيبنا ، حذار من أن ينطبق علينا هذا الكلام .

الإله عند المسيحيين

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ

وَأُمُّ صَدِيقَةٍ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

تالله : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ وكيف لا يكفرون وقد ضلوا ضللاً بعيداً جداً عن العقل والدين ، إذ هم يقولون إن الله مركب في ثلاثة أقاليم أي « أصول » : الأب والابن والروح القدس . وقد حل الأب في الابن واتحد وكون روح القدس وكل واحد من هذه الثلاثة عين الآخر والثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ... ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ ^(١) على أن خلاصة أقوالهم : إن الله هو المسيح ، والمسيح هو الله ولقد رد القرآن عليهم : كيف تقولون هذا البهتان ، وقد قال المسيح بن مريم ﴿ يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ فقد أمرهم بعبادة الله وحده ، معترفاً بأنه ربه وربهم ، ودعاهم إلى التوحيد الخالص من كل شرك ، وهذا هو عيسى يحذرهم عاقبة الشرك والوثنية : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين ﴾ أنفسهم باتخاذ الشركاء والآلهة من نصير ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم وينقذهم ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ^(٢) ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ﴾ أي واحد من ثلاثة التي هي الأقاليم الثلاثة ﴿ وما من إله ﴾ في الوجود يستحق العبادة ﴿ إلا إله واحد ﴾ أحد فرد صمد ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ^(٣) سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ أعموا ﴿ فلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ﴾ ويرجعون إليه ﴿ والله ﴾ كتب على نفسه الرحمة وهو الغفور الرحيم : أما حقيقة المسيح عيسى بن مريم : فهو رسول كبقية الرسل أيد بالمعجزات الخوارق للعادة كالنبيين السابقين وكما أيد المصطفى ﷺ بالمعجزة الباقية الخالدة (القرآن) ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وزوج منه ﴾ ^(٤) وأما أمه فهي الصديقة الطاهرة المطهرة نفخ الله فيها من روحه ، وصدقت بكلمات ربها فكانت من القانتين ، وأما حقيقتهما الشخصية والنوعية فمساوية لسائر البشر بدليل أنهما ﴿ يأكلان الطعام ﴾ لقيما به أودهما ومرت بهما ظروف خاصة وعامة كغيرهما وهما يذهبان إلى الخلاء ليقضيا حاجتهما ! فهل يكون أمثال هذين آلهة تعبد ؟! ﴿ انظر ﴾ يا من يتأني منك النظر ﴿ كيف نبين لهم الآيات ﴾ ثم بعد ذلك يغالون في البعد عن المنطق السليم وكيف ﴿ يؤفكون ﴾ يصرفون عن استبانة الحق كأن عقولهم فقدت بسبب التقاليد وظيفتها .

(١) من الآية ٥ من سورة الكهف .

(٢) من آية الكرسي : ٢٥٥ سورة البقرة .

(٣) من سورة الأخرس .

(٤) من الآية : ١٧١ من سورة النساء وقد سبق تفسيرها .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ .

تفسير المفردات :

﴿ الغلو ﴾ : الإفراط وتجاوز الحد . ﴿ أهواء ﴾ : آراء قوم دعت إليها الشهوة دون الحجة والبرهان . ﴿ لعن ﴾ : اللعن الطرد من الرحمة . ﴿ يعتدون ﴾ : يتجاوزون حدود الله . ﴿ لا يتناهون ﴾ : لا ينهى بعضهم بعضاً . ﴿ يتولون الذين كفروا ﴾ : يتخذونهم أولياء وأنصاراً وأعواناً . ﴿ لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ : أسلوب ذم . والمعنى : قبح فعلهم وساء .

التفسير

لما بين الله تعالى حقيقة المسيح وأمه في كلمات موجزة وجيزة وقال : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ (١) لما بين الله ذلك جاء الخطاب موجهاً إلى الصادق المعصوم ولكل عاقل منصف ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً . والله هو السميع العليم ﴾ وهذا أسلوب استفهام إنكارى فيه توبيخ وتقريع : أى ما كان ينبغي لكم أيها العقلاء أن توصدوا أبواب المعرفة وتغلقوا نوافذ العلم ، وتعطلوا وظائف الحواس . فتجاوزوا الحدود وتعبدوا من دون الله ما لا يملك ضرراً ولا نفعاً لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً سواء أكان المعبود بشراً أم حجراً أم حديداً أم ملكاً كريماً .

(١) من الآية ٧٥ سورة المائدة .

فيا من عبدتم المسيح هل كان المسيح إلا كما قال الله تعالى فيه : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١) هل كان إلا بشراً يأكل الطعام ؟ وفي التعبير يأكل الطعام ما يفيد أن الطعام يتحول بعد الهضم والامتصاص إلى خلايا تقوم ببناء الأنسجة ، وتقوم الأنسجة ببناء الأعضاء التي تقوم بتكوين الأجهزة .. إن من كان شأنه كذلك فلا بد أن يجرى عليه ما يجرى على بقية البشر من نوم ويقظة ومرض وصحة وإخراج للفضلات من بول وغائط وعرق ، ولا بد أن يموت ، فكيف يُتصور أن من كان شأنه كذلك يُعبد من دون الله ؟ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢) .

إن الضار النافع هو الله ، والقابض الباسط هو الله ، والمعطي المانع هو الله ، والخافض الرافع هو الله ، والمحى المميت هو الله ، والمعز المذل هو الله ، والسميع العليم هو الله .

قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ : الغلو مذموم لأنه تجاوز المعقول ولأنه إفراط والافراط رذيلة ، كما أن التفريط كذلك . والاعتدال فضيلة ، لذا جاء الإسلام وسطاً . قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (٣) أى عدولاً . وقال جل شأنه في مدح الوسطية : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (٤) . وقال : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (٥) . وقال : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (٦) . حتى لما قال بنو إسرائيل عن البقرة : ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بُكْرَ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ (٧) . ولما كان الغلو ممقوتاً مذموماً وصف الله تعالى بأنه ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ . لذا كان السيد الصادق المعصوم صلوات ربي وسلامه عليه يقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم فإنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا : عبد الله ورسوله » . ومن ثم فإن المسيح وهو في المهد قال : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ (٨) .

وخاتم الأنبياء المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم كان من أحب أسمائه إليه في القرآن « عبد الله » ، في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (٩) . ومن عجب أنك تقرأ في القرآن الكريم وفي أرقى المنازل وأرفعها تقرأ أخبار الله تعالى عن رسوله بعنوان العبودية . ففي مقام

(٦) من الآية ١١٠ سورة الإسراء .

(٧) من الآية ٦٨ سورة البقرة .

(٨) من الآية ٣٠ سورة مريم .

(٩) الآية ١٩ سورة الجن .

(١) الآية ٥٩ سورة الزخرف .

(٢) الآية ١٧ سورة المائدة .

(٣) من الآية ١٤٣ سورة البقرة .

(٤) الآية ٦٧ سورة الفرقان .

(٥) الآية ٢٩ سورة الإسراء .

الإسراء وهو مقام رفيع : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾^(١) وفى مقام المعراج وهو مقام تنهى فى العلو والسمو تقرأ : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾^(٢) فالعبودية لله عز وربوبية الله للعبد فخر ، حتى كان بعضهم ينجى ربه فيقول : « كفى عزا أن أكون لك عبداً . وكفى فخرا أن تكون لى رباً » .
لذا كان هناك فرق شاسع بين أن يكون العبد عبداً مملوكاً لغيره من البشر وبين أن يكون عبداً لله خالصاً ، فالعبد المملوك لغيره من البشر يعود خيره على سيده ، والعبد المملوك لله وحده يعود خيره سيده (وهو الله) عليه . من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً .

ومما زادنى شرفاً وقـدرا وكدت بأخصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيرت أحمد لى نبيا

ثم ينهى الله أهل الكتاب عن اتباع أهواء قوم عرفوا بالضلال والإضلال فقال : ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ فالضلال الأول مقيد بالقلبية ، أى أنهم كانوا أسبق ضلالاً ، والإضلال الثانى متعدٍ إلى كثير ممن اتبعوهم ، والضلال الثالث مقيد بأنه عن سواء السبيل . والهوى نوازع النفس إلى مسالك الشر ، ويشمل كل رأى صادر عن شهوة أو غرض ، لذا كان نهى النفس عنه درجة من درجات القرب إلى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى ﴾^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ : هذا عقاب منه جلت قدرته لقوم كفروا من بنى إسرائيل ، فكان الكفر بمثابة الحيثية الأولى من هذا الحكم . نعم وهل يستحق اللعنة والطرده من رحمة الله إلا من توافرت فيه تلك الحيثيات . لقد لعن الله هؤلاء الكافرين من بنى إسرائيل على لسان السابقين من الأنبياء كداود وعيسى ابن مريم . قال العوفى عن ابن عباس : لعنوا فى التوراة والإنجيل وفى الزبور وفى الفرقان .. وقد بين الله تعالى من أسباب لعنهم ما فيه مزدجر لغيرهم . فقال : ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ عصوا من ؟ عصوا المليك المقتدر ، جبار السماوات والأرض ، عصوا الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، عصوا من يعلم السر وأخفى ، عصوا من أحاط بكل شئ علماً ، وأحصى كل شئ عدداً عصوا السميع الذى يسمع ذيب أرجل الثملة السمرء فوق الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، عصوا العليم الذى علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون ، وعلم ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون .

(١) من الآية ١ سورة الإسراء .

(٢) الآية ١٠ سورة النجم .

(٣) الآيتان ٤٠ و ٤١ سورة النازعات .

وكانوا يعتدون ، يتجاوزون حدود الله فقد فرض الله تعالى فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تقربوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها . ومن أسباب لعنة الله لهم — بل من أقوى الأسباب ، شيوع المنكر فيهم ، ومع ذلك لا يتناهون عنه ، فقد كانوا يفعلونه ويجهلون الله بالمعصية . وقد ذمَّ الله تعالى فعلهم هذا ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ . فتلك هي الأسباب كما بينها الله تعالى ، وهذا هو حكمه عليهم : لعنة وطرده من رحمة الله . وما جرى عليهم يجرى على غيرهم من الأمم إن هم فعلوا فعلهم . فقد أعد الله تعالى الجنة لكل طائع ولو كان عبداً حبشياً . وأعد النار لكل عاص ولو كان حراً قرشياً . وقد حدثنا القرآن الكريم عن تدمير الله لقرى لوط فقال : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك ﴾ ^(١) . ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ وماهى من الظالمين ببعيد ﴾ ^(٢) . وأشد ما تبلى به الأمم وتصاب به المجتمعات شيوع المنكر بين أفرادها . قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض — ثم قال : ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴾ إلى قوله ﴿ فاسقون ﴾ — ثم قال — كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرن على الحق أطرا أو تقصرنه على الحق قصرا » رواه الترمذى .

إن قاعدة إصلاح المجتمع تقوم على التناصح فالناس بخير ماتناصحوا : قال ﷺ : الدين النصيحة . قلنا : لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » فالنصيحة هي ركن الدين الأعظم . لذا نهى الإسلام عن الغش والنفاق . قال تعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ ^(٣) . وقال ﷺ : « من غشنا فليس منا » وقد ورد عن رسول الله ﷺ أحاديث فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نذكر منها ما يوفى هذا المقام حقه :

قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد المسئء ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كم لعنهم » . قال ﷺ : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » . رواه الترمذى .

(٣) الآية ١٤٥ سورة النساء .

(١) الآية ٨٢ وجزء من الآية ٨٣ سورة هود .

(٢) جزء من الآية ٨٣ سورة هود .

قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم .

قال ﷺ : « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرون فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » . رواه الإمام أحمد .

قال النبي ﷺ : « إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرها ، كان كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » رواه أبو داود .

قال النبي ﷺ : « لن يهلك الناس حتى تعذروا أو يعذروا من أنفسهم » .

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام خطيبا فكان فيما قال : « ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه » قال فبكى أبو سعيد وقال : قد والله رأينا أشياء فهبنا .

قال رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » رواه الترمذي .

قال رسول الله ﷺ : « لا يحقر أحدكم نفسه » قالوا يارسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال « يرى أمر الله فيه فقال ثم لا يقول فيه فيقول الله له يوم القيامة ما منعك أن تقول في كذا كذا وكذا فيقول خشية الناس فيقول فإياي كنت أحق أن تخشى » .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله يسأل العبد يوم القيامة حتى يقول ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره فإذا لعنه الله عبدا حجة قال يارب رجوتك وفرقت الناس » .

قال ﷺ : « لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه » قيل وكيف يذل نفسه قال « يعترض من البلاء لما لا يطيق » رواه الترمذي .

عن أنس بن مالك قال : قيل يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال « إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم » قلنا يارسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا ، قال . الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذالكم » . قال زيد تفسير معنى قول النبي (ﷺ) والعلم في رذالكم إذا كان العلم في الفساق » تفرد به ابن ماجه .

قوله تعالى ﴿ ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ﴾ وهذه جريمة أخرى من جرائم اليهود الذين اتخذوا من كفار مكة وقبائل المشركين أعوانا وأنصارا وأولياء . فقد سأل الكفار حبي بن أخطب : أيُّنا على حق ؟ أنحن أم محمد . فقال لهم : بل أنتم على حق ومحمد على ضلال . قالها وهو يعلم علم اليقين أنه كاذب فقد قرأ صفة النبي (ﷺ) في التوراة ، وقد ذكر الله هذا الموقف الأليم في قوله :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾^(١) . وقد ذم الله تعالى صنيعهم هذا فقال عز من قائل ﴿ لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾ . في هذه الآية دليل قاطع وبرهان ساطع على كفر هؤلاء المارقين ، فإنهم لو كانوا يؤمنون بالله ربا ومحمد ﷺ نبيا والقرآن كتابا منزلا من عند الله ما اتخذوا الكافرين أولياء إذ أن اتخاذهم أولياء دليل على جحودهم وتمردهم على المؤمنين . ثم بين الله تعالى العلة في اتخاذهم الكافرين أولياء فقال : ﴿ ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾ أى خارجون على حدود الله عاصون لأوامره مخالفون لآيات وحيه وتنزيله وهذا هو شأن اليهود في كل زمان ومكان يضمرون الحقد والبغضاء للجماعة المؤمنة ويناصبونها أشد العدااء ويحقدون على رسول الله ﷺ حقدا أسود ويتآمرون عليه ويحاولون كثيرا القضاء عليه بالسم مرة والخديعة أخرى ، ولكن الله تعالى يعصمه ويرعاه وعين الله تلكؤه وتحميه . إنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا .